النفح العاطر من صيد الخاطر

فيما يخص المتعلم والعالم



انتقاء وترتيب

محمد بركات

دار اللباب

النفح العاطر من صيد الخاطر

فيما يخص المتعلم والعالم

انتقاء وترتيب
محمد بركات

دار اللباب

الطبعَة الأولىٰ
١٤٣٧هـ-٢٠١٦م

دار اللُّبَاب
للدِّرَاسَاتِ وَتَحْقِيقِ التُّرَاثِ
تركيا - اسطنبول - الفاتح - اسكندر باشا - كزتاش - مفرق بنك الكويت
مقابل مستشفى الفاتح - بناء رقم ٧ - ط ٥
İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)
Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları
Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850
Www.allobab.com - Email: info@allobab.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه مقتطفات جمعتها أثناء مطالعتي لكتاب «صيد الخاطر» للإمام العلامة جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، الحافظ الواعظ، صاحب التصانيف المشهورة، المتوفى سنة (٥٩٧هـ)، الذي جمع فيه خواطر عَرَضت له، وسَوانِح من عجائب خطرت له، فاصطادها وقيَّدها في كتابه هذا، فكانت ثروة نفيسةً لا يفرّط فيها، فيها فوائد ومواعظ نافعة تصل إلى قرارة النفس، تخاطب القلب بالعاطفة، والعقلَ بالدليل، قد مزجها مزجاً عجيباً، تناولت مسائل في الإيمان بالله ومعرفته، وفي مجاهدة النفس ومداخل إبليس، وفي العبادة والمعصية، وغير ذلك من موضوعات عديدة، إلا أنه من أنفس ما سجَّل فيه من خواطر ما كان في العلم والعلماء وطلاب العلم، وأحوالهم، فقد كتب في علو الهمة وضرورتها لطالب المعالي، وفي الوقت وأهمية اغتنامه، كما أنه كتب في أنواع العلوم التي يجب أن يُحصّلها طالب العلم وكيف يحصّلها، وكيف يراعي فيها الأهمَّ فالأهم، وكيف يوزع ساعات يومه بين الدرس والحفظ والكتابة، وذكر مداخل إبليس على طالب العلم في بعض مشاكل تعوقه، كالكسب وطلب المال والزواج، وصحبة البطالين، وما يحصل له من تغيُّر قصده ونيته في طلب العلم، وعدم العمل بما علم، وغير ذلك من حظوظ النفس وخطرات الشياطين، وقد فرّق

بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، وبيَّن عقوبة علماء الدنيا، وأهم أمراض التي تصيب العلماء كالحسد والكبر والغفلة وحب العزلة..

واليوم رأيت أن أجمع كل هذا في كتاب مستقل، وأقدمه بين يدي طلاب العلم، لما فيه من عظيم فائدة، وقد رتبته في سبعة فصول:

الأول: في علو الهمة وطلب معاني الأمور.

الثاني: في حقيقة العلم وشرفه.

الثالث: في قيمة الوقت.

الرابع: في اقتضاء العلم العمل.

الخامس: في العلم وكسب المال.

السادس: في أدب المتعلمين.

السابع: في أدب المعلمين.

وقد سميته: «النفح العاطر من صيد الخاطر فيما يخص المتعلم والعالم» راجياً من الله حسن القبول، وأن ينفع به ويعفو عن التقصير، إنه سميع مجيب.

دمشق ٣/ ٣/ ٢٠٠٨

محمد بركات

ترجمة الحافظ ابن الجوزي

هو الحافظ المفسّر، شيخ الإسلام وعالم العراق، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي، البغدادي، الحنبلي، الواعظ، صاحب التصانيف.

ولد سنة (٥٠٩هـ) ببغداد، وسمع الحديث وهو ابن سبع سنين، سمع من كبار محدثي عصره كأبي القاسم بن الحصين وابن الزاغوني، وابن الطَّبَر، وابن البناء، وابن خيرون، وأبي الوقت السجزي، وابن ناصرٍ، وابن البطي، وطائفة.

وانتفع في الحديث بملازمة ابن ناصر، وفي القرآن والأدب بسِبْط الخياط وابن الجواليقي.

وحدَّث عنه: ولده محيي الدين يوسف، وسِبْطه الواعظ شمس الدين يوسف بن قزغلي صاحب «مرآة الزمان»، والشيخ موفق الدين ابن قدامة، وابن الدُّبَيْثي وابن النجار، وآخرون.

قال الذهبي:

وكان رأساً في التَّذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهاً، ويُسهب ويُعْجب ويُطْرب ويُطْنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيِّم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحراً في التفسير، علَّامةً في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث ومعرفة فنونه، فقيهاً، عليماً بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفننٍ وفهم وذكاء وحفظ واستحضار، وإكباب على الجمع والتصنيف، مع التصون والتحمل وحسن الشارة، ورشاقة العبارة، ولطف

الشمائل، والأوصاف الحميدة، والحرمة الوافرة عند الخاص والعام، ما عرفتُ أحداً صنَّف ما صنف.

توفي أبوه وله ثلاثة أعوام، فربَّته عمتُه، ثم لما ترعرع، حملته عمتُه إلى ابن ناصرٍ، فأسمعه الكثير، وأحبَّ الوعظ، ولهج به وهو مراهق، فوعظ الناس وهو صبي، ثم مازال نافقَ السوق مُعظّماً متغالياً فيه، مُزْدَحماً عليه، مضروباً برونق وعظه المثل، كِلْماله في ازديادٍ واشتهار، إلى أن مات رحمه الله.

صنَّف المؤلفات الكثيرة في التفسير والأدب والحديث والفقه والتاريخ والتراجم، زادت على (٣٠٠) مؤلف، من أشهرها «زاد المسير» في التفسير، و«صفة الصفوة»، و«تلبيس إبليس»، و«الموضوعات»، و«المنتظم» في التاريخ، و«صيد الخاطر».

وكان رحمه الله ذا حظ عظيم وصيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوفٍ كثيرة، وتاب على يديه المئات، وأسلم عليه آخرون، وكان زاهداً متقللاً.

وقال الموفّق: كان لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات، لذيذ المفاكهة، يحضر مجلسه مئة ألفٍ أو يزيدون، لا يضيّع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربع كراريس، وله في كل علم مشاركة، وكان يراعي حفظ صحته وتلطيف مزاحه، وما يفيد عقله قوةً وذهنه حدّةً، ولباسه أفضل لباس.

وتوفي رحمه الله ليلة الجمعة في (١٣) من رمضان، سنة ٥٩٧هـ[1].

---

(١) من «سير أعلام النبلاء» ٢١/ ٣٦٥ بتصرف.

الفصل الأول

في علو الهمة و طلب معالي الأمور

معالي الأمور تحتاج إلى تعب

تأمَّلت عجباً، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ نفيسٍ خطير يطولُ طريقه، ويكثرُ التَّعبُ في تحصيله؛ فإنَّ العلمَ لمَّا كان أشرفَ الأشياء، لم يحصل إلَّا بالتعب، والسَّهر، والتكرار، وهجر اللذَّات والراحة، حتى قال بعض الفقهاء: بقيتُ سنين أشتهي الهريسةَ لا أقدر؛ لأنَّ وقتَ بيعها وقتُ سماع الدرس.

ونحو هذا تحصيلُ المال، فإنَّه يحتاج إلى المخاطرات، والأسفار، والتَّعب الكثير.

وكذلك نيلُ الشَّرف بالكرم والجود، فإنَّه يفتقرُ إلى جهاد النفس في بذل المحبوب، وربَّما آلَ إلى الفقر.

وكذلك الشجاعةُ، فإنَّها لا تحصل إلَّا بالمخاطرة بالنفس، قال الشاعر:

لـولا الـمـشـقَّـةُ سـادَ الـنـاسُ كـلُّـهُـمُ   الـجـود يُـفـقِـرُ والإقـدامُ قَـتَّـالُ

ومن هذا الفن تحصيلُ الثواب في الآخرة، فإنَّه يزيد على قوة الاجتهاد والتَّعبُّد، أو على قَدْر وقع المبذول من المال في النفس، أو على قَدْر الصَّبر على فقد المحبوب ومنع النفس من الجزع.

وكذلك الزُّهدُ يحتاج إلى صَبْرٍ عن الهوى، والعفافُ لا يكون إلَّا بكفِّ كفِّ الشَّره، ولولا ما عانى يوسفُ عليه السلام ما قيل له: أيها الصِّديق!

ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلَّا بتحصيلِ جميعها، فهم يبالغون في كلِّ علمٍ، ويجتهدون في كلِّ عملٍ، ويثابرونَ على كلِّ فضيلة، فإذا ضَعُفتْ أبدانهم عن بعضٍ ذلك، قامت النِّيَّاتُ نائبةً وهم لها سابقون، وأكملُ أحوالهم إعراضُهم عن أعمالِهم، فهم يحتقرونها مع التَّمام، ويعتذرون من التقصير، ومنهم مَن يزيد على هذا، فيتشاغل بالشُّكر على التوفيقِ لذلك، وهم مَنْ لا يرى ما عمل أصلاً؛ لأنَّه يرى نفسَه وعمله لسيِّده.

وبالعكس من المذكور عن أرباب الاجتهاد حالُ أهلِ الكسل والشَّره والشَّهوات، فلئن التذُّوا بعاجل الراحة، لقد أوجبتْ ما يزيد على كلِّ تعب من الأسف والحسرةِ، ومَنْ تلمَّح صبرَ يوسف عليه السلام، وعجلةَ ماعِز، بانَ له الفرق، وفهم الرِّبح من الخُسران.

ولقد تأمَّلت نيلَ الدُّرِّ من البحر، فرأيتُهُ بعد معاناةِ الشدائد، ومن تفكَّر فيما ذكرتُهُ مثلاً بانت له أمثال.

فالموفَّقُ مَنْ إذا تلمَّح قِصَرَ الموسم المعمول فيه، وامتدادَ زمان الجزاء الذي لا آخرَ له، انتهبَ حتى اللحظة، وزاحمَ كلَّ فضيلة، فإنَّها إذا فاتت فلا وجهَ لاستدراكها، أَوَليس في الحديث يقال للرجل: «اقْرأ وارْقَ، فمنزلتُكَ عِنْدَ آخرِ آيةٍ تَقْرَؤُها»[(١)]، فلو أنَّ الفكرَ عمِل في هذا حقَّ العمل حفظ القرآن عاجلاً.

الفكر الصافي يدل على معالي الأمور

مَنْ أعمل فِكرَه الصَّافي دلَّه على طلب أشرف المقامات، ونهاه عن الرِّضا بالنقص في كلِّ حال، وقد قال أبو الطيب المتنبِّي:

ولم أرَ في عيوبِ النَّاسِ عيباً ... كنقصِ القادرين على التَّمامِ

فينبغي للعاقل أن ينتهيَ إلى غاية ما يُمكنه، فلو كان يُتَصوَّرُ للآدمي صعودُ

(١) أخرجه أحمد (٦٧٩٩)، والترمذي (٢٩١٤) من حديث عبد الله بن عمرو، وهو حديث صحيح.

السماوات لرأيت من أقبحِ النقائص رضاه بالأرض، ولو كانت النُّبوَّةُ تحصلُ بالاجتهاد رأيت المقصِّر في تحصيلها في حضيض، غير أنَّه إذا لم يُمَكَّن ذلك فينبغي أن يطلبَ المُمْكِن، والسيرةُ الجميلة عند الحكماء خروج النفسِ إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل.

وأنا أشرحُ من ذلك ما يدلُّ مذكوره على مُغفَله:

أمَّا في البدن، فليست الصورةُ داخلةً تحت كَسْبِ الآدميِّ، بل يدخل تحت كسبه تحسينُها وتزيينُها، فقبيحٌ بالعاقل إهمالُ نفسه، وقد نبَّه الشَّرع على الكلِّ بالبعض، فأمر بقصِّ الأظافر، ونَتْفِ الإبط، وحَلْقِ العانة، ونهى عن أكل الثوم والبصل النِّيءِ لأجل الرائحة، وينبغي له أن يقيسَ على ذلك، ويطلبَ غايةَ النَّظافةِ ونهايةَ الزِّينة، وقد كان النبي ﷺ يُعرف مجيئه بريح الطِّيب(١)، فكان الغايةَ في النظافة والنَّزاهة، ولست آمراً بزيادة التقشُّف الذي يستعمله الْمُوَسْوَسُون، أو المترفون، ولكن التوسُّط هو المحمود.

ثم ينبغي له أن يرفُق ببدنه الذي هو راحلته، ولا يَنْقُص من قُوتِها فتنقُصَ قوَّتُها، ولستُ آمراً بالشِّبع الذي يوجبُ الجُشَاء إنَّما آمر بالتوسُّط، فإنَّ قِوى الآدميِّ كعينٍ جارية، فكَمْ فيها من منفعةٍ لصاحبها ولغيره، و«تعين صانعاً»(٢).

ولا يلتفت إلى قول الْمُوسوَسين من المتزهِّدين الذي جدُّوا في التقلُّل، فضعُفوا عن الفرائض، وليس ذلك من الشَّرع، ولا نُقِل عن الرسول ﷺ ولا أصحابه، إنَّما كان الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ إذا لم يجدوا جاعوا، وربما آثروا، فصبروا ضرورةً، وكذلك ينبغي أن ينظر لهذه الراحلة في علفها، فربَّ لقمةٍ منعت لُقْمات، فلا يعطيها ما يؤذيها، بل ينظر لها في الأصلح، ولا يلتفت إلى متزهد يقول: لا أبلغُها الشهوات، فإنَّ النظر ينبغي أن يكون في حِلِّ المَطْعَمِ، وأخذ ما يصلُح بمقدار.

ولم يُنقل عن الرسول ﷺ ولا أصحابه ﷺ ما أحدثه الْمُوسْوَسون في ترك المشتهيات على الإطلاق، إنَّما نقل عنهم تركها لسبب: إمَّا للنظر في حِلِّها، أو

---

(١) أخرجه ابن سعد ١/ ٣٩٩ من حديث أنس ﷺ.
(٢) صحيح البخاري (٢٥١٨)، وصحيح مسلم (٨٤) من حديث أبي ذرٍ.

للخوف من مطالبة النَّفس بها في كلِّ وقت، ويجوز ذلك.

وينبغي له أن يجتهدَ في التِّجارة والكسب، ليُفضَّل على غيره، ولا يُفضَّل غيرُه عليه، وليبلُغَ مِنْ ذلك غايةً لا تمنعُه عن العلم.

ثم ينبغي له أن يطلبَ الغايةَ في العلم.

ثم ينبغي له أن يطلبَ الغاية في معرفة الله تعالى ومعاملته.

وفي الجملة: لا يتركْ فضيلةً يمكن تحصيلها إلَّا حصَّلها، فإنَّ القُنوع بما نزل المباركَ حالة الأرذال.

فكُنْ رَجُلاً رجلُه في الثَّرى ... وهامةُ همَّته في الثُّريا

ولو أمكنك عبور كلِّ أحدٍ من العلماء والزُّهَّاد فافعل، فإنَّهم كانوا رجالاً وأنت رجلٌ، وما قعدَ مَنْ قعد إلا لدناءة الهِمَّة وخساستها، واعلم أنَّك في ميدان سباق، والأوقات تُنْتَهب، ولا تَخلُدْ إلى كسل، فما فاتَ مَنْ فات إلَّا بالكسل، ولا نال مَنْ نال إلَّا بالجِدِّ والعزم، وإنَّ الهمَّة لَتغلي في القلوب غليانَ ما في القدور، وقد قال بعضُ مَنْ سَلَف:

ليس لي مالٌ سِوى كَرمي ... فبه أمْني من العَدمِ

قَنِعَتْ نفسي بما رُزِقَتْ ... وتمطَّت في العُلا هِممي

علوُّ الهمَّة من علامة كمال العقل

من علامة كمالِ العقل علوُّ الهمَّة، والراضي بالدون دنيء.

ولم أرَ في عيوبِ النَّاسِ عيباً ... كنقصِ القادرين على التَّمامِ

وما ابتُليَ الإنسان قطُّ بأعظمَ من علوِّ همَّته، فإنَّ مَنْ علت همَّته يختارُ المعالي، وقد لا يساعدُ الزمان، وقد تضعُفُ الآلة، فيبقى في عذاب.

وإني أُعطيت من علوِّ الهمَّة طَرَفاً، فأنا به في عذاب، ولا أقولُ لَيْتَه لم يكنْ، فإنَّه إنَّما يحلو العيشُ بقدر عدم العقل، والعاقلُ لا يختار زيادةَ اللذَّةِ بنقصان العقل.

ولقد رأيتُ أقواماً يصفون علوَّ هِمَمهم، فتأمَّلتها، فإذا بها في فنٍّ واحدٍ، ولا يبالون بالنقص فيما هو أهمُّ، قال الرَّضي:

ولكلِّ جسمٍ في النُّحولِ بليةٌ وبلاءُ جِسْمِي مِنْ تفاوتِ هِمَّتي

فنظرتُ فإذا غايةُ أمله الإمارة.

وكان أبو مسلم الخُراساني في حال شبيبته لا يكادُ ينام، فقيل له في ذلك، فقال: ذهنٌ صافٍ، وهَمٌّ بعيد، ونفسٌ تتوق إلى معالي الأمور، مع عيشٍ كعيش الهَمَجِ الرَّعاع. قيل: فما الذي يُبرِدُ غليلك؟ قال: الظَّفَر بالمُلكِ. قيل: فاطلبه، قال: لا يُطلبُ إلَّا بالأهوال، قيل: فاركبِ الأهوالَ، قال: العقلُ مانعٌ، قيل: فما تصنعُ؟ قال: سأجعلُ مِنْ عقلي جهلاً، وأحاول به خَطَراً لا يُنال إلَّا بالجهل، وأُدَبِّر بالعقل ما لا يحفظ إلَّا به، فإنَّ الخمولَ أخو العَدَم.

فنظرتُ إلى حالِ هذا المسكين، فإذا به قد ضيَّع أهمَّ المهمَّات، وهو جانب الآخرة، وانتصب في طلب الولايات، فكم فَتَكَ وقَتَلَ حتى نال بعضَ مُراده من لذَّاتِ الدُّنيا، ثم لم يتنعَّمْ في ذلك غير ثماني سنين، ثم اغتيل، ونسي تدبيرَ العقل، فقُتِل ومضى إلى الآخرة على أقبحِ حال.

وكان المتنبِّي يقول:

وفي الناس مَنْ يرضى بميسور عَيْشِهِ ومركوبُهُ رجلاهُ والثوبُ جلْدُهُ
ولكنَّ قلباً بين جنبيَّ مالَه مَدًى ينتهي بي في مرادٍ أَحُدُّهُ
يرى جِسْمَه يُكْسى شُفوفاً تَرُبُّهُ فيختارُ أن يُكسى دُروعاً تَهُدُّهُ

فتأمَّلت هذا الآخرَ فإذا نَهْمتُه فيما يتعلَّق بالدُّنْيا فحَسْبُ.

ونظرتُ إلى علوِّ همَّتي، فرأيتها عجباً، وذلك أنَّني أرومُ من العلم ما أتيقَّن أني لا أصلُ إليه، لأنَّني أحبُّ نَيْلَ كلِّ العلوم على اختلاف فنونها، وأريد استقصاءَ كلَّ فرد، وهذا أمرٌ يعجز العُمُرُ عن بعضه، فإنْ عَرَضَ لي ذو هِمَّةٍ في فنٍّ قد بلغ منتهاه رأيتُهُ ناقصاً في غيره، فلا أعدُّ هِمَّتَه تامَّةً، مثل المُحدِّث فاته الفقهُ، والفقيه فاته علمُ الحديث؛ فلا أرى الرِّضا بنقصان من العلوم إلَّا حادثاً عن نقصِ الهمَّة.

ثَمَّ إنِّي أرومُ نهايةَ العملِ بالعلم، فأتُوقُ إلى وَرَعِ بِشْر، وزَهَادةِ مَعْروف، وهذا مع مطالعة التَّصانيف، وإفادة الخَلْق، ومعاشرتهم: بعيدٌ.

ثم إنِّي أروم الغنى عن الخَلْق، وأستشرفُ الإفضالَ عليهم، والاشتغالُ بالعلم مانعٌ من الكسبِ، وقبولُ المنن مما تأباهُ الهمَّة العالية.

ثُمَّ إنِّي أتوقُ إلى طلب الأولاد، كما أَتُوقُ إلى تحقيقِ التصانيف، لبقاء الخَلَفين نائبين عنِّي بعد التَّلَف، وفي طلبِ ذلك ما فيه من شُغْلِ القلبِ المُحبِّ للتفرُّد.

ثُمَّ إنِّي أروم الاستمتاعَ بالمستحسنات، وفي ذلك امتناعٌ من جهة قلَّة المال، ثم لو حصل فرَّق جَمْع الهِمَّة.

وكذلك أطلبُ لبدني ما يُصلحه من المطاعم والمشارب، فإنَّه متعوِّد للترفُّه واللُّطْف، وفي قلةِ المال مانع، وكلُّ ذلك جمع بين أضداد!

فأين أنا وما وَصَفتُه مِنْ حال مَنْ كانت غاية همَّته الدُّنيا؟ وأنا لا أُحِبُّ أن يَخدِشَ حصولُ شيءٍ من الدنيا وجهَ ديني بسببٍ، ولا أن يُؤثِّر في عِلْمي، ولا في عَمَلي.

فوَاقَلَقي من طلب قيامِ الليل، وتحقيق الوَرَع مع إعادةِ العلم، وشُغْل القلب بالتَّصانيف، وتحصيل ما يُلائم البدنَ من المطاعم! ووَاأسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخَلْوة مع ملاقاةِ الناس وتعليمهم، وياكَدَرَ الوَرَعِ مع طلب ما لا بدَّ منه للعائلة!

غير أنِّي قد استسلمتُ لتعذيبي، ولعلَّ تهذيبي في تعذيبي، لأنَّ عِلْيَانَ الهِمَّةِ تطلبُ المعالي المقرِّبة إلى الحقِّ عزَّ وجلَّ، وربما كانت الخيرةُ في الطلب دليلاً إلى المقصود، وها أنا أحفظُ أنفاسي من أن يضيعَ منها نَفَسٌ في غير فائدة، وأن أُبْلِغَ همِّي مُرادَه، وإلا فنيَّةُ المؤمن أبلغُ من عمله.

صاحب الهِمَّة العالية في تعبٍ دائم

مَنْ رُزِقَ همَّةً عاليةً يعذَّبُ بمقدار علوِّها، كما قال الشاعر:

وإذَا كانتِ النفوسُ كباراً تعبتْ في مرادِها الأجْسَامُ

وقال الآخر:

ولكلِّ جسمٍ في النُّحولِ بليةٌ وبلاءُ جسمِي مِنْ تَفاوُتِ هِمَّتي

وبيان هذا أنَّ مَنْ علت همَّتُهُ طَلَبَ العلومَ كُلَّها، ولم يقتصر على بعضها، وطَلَبَ مِنْ كلِّ علمٍ نهايتَه، وهذا لا يحتمله البدنُ.

ثم يرى أنَّ المرادَ العمل، فيجتهدُ في قيامِ الليل، وصيام النهار، والجمع بين ذلك وبين العلم صعبٌ، ثم يرى تَرْكَ الدنيا، ويحتاج إلى ما لا بُدَّ منه، ويحبُّ الإيثارَ، ولا يقدر على البُخلِ، ويتقاضاه الكرمُ البَذْلَ، ويمنعُهُ عِزُّ النَّفسِ عن الكسبِ من وجوه التَّبذُّل، فإن هو جرى على طَبْعه من الكرم احتاج وافتقر، وتأثَّر بدنُهُ وعائلتُهُ، وإن أمسك؛ فطبعُهُ يأبى ذلك.

وفي الجملة: يحتاجُ إلى معاناةٍ، وجمعٍ بين أضداد، فهو أبداً في نَصَبٍ لا ينقضي، وتَعَبٍ لا يفرُغ، ثم إذا حقَّق الإخلاصَ في الأعمال زاد تعبُهُ، وقويَ وَصَبُهُ!

فأين هو وَمَنْ دَنَت همَّته؟ إن كان فقيهاً فسُئل عن حديث قال: ما أعرفه، وإنْ كان محدِّثاً فسُئل عن مسألةٍ فقهيَّةٍ قال: ما أدري، ولا يُبالي إن قيل عنه: مُقصِّر.

والعالي الهمَّة يرى التقصيرَ في بعض العلوم فضيحةً قد كَشَفَتْ عَيْبَه، وقد رأت الناسُ عورتَه.

والقصيرُ الهمَّة لا يُبالي بمِنَن الناس، ولا يستقبحُ سُؤالَهم، ولا يأنَفُ من رَدٍّ، والعالي الهمَّة لا يحتمل ذلك. ولكنَّ تعبَ العالي الهمَّة راحةٌ في المعنى، وراحةُ القصير الهمَّة تعبٌ وشَيْنٌ إنْ كان ثَمَّ فَهْمٌ!

والدنيا دارُ سِباقٍ إلى أعالي المعالي، فينبغي لذي الهمَّة ألَّا يُقصِّرَ في شَوْطِهِ، فإن سَبَقَ فهو المقصودُ، وإن كَبَا جوادُهُ مع اجتهادِه لم يُلَمْ.

تفاوت همم النَّاس

تأمَّلتُ حالةً عجيبةً، وهو أنَّ أهلَ الجنَّةِ السَّاكنين في أرضها في نقصٍ عظيم بالإضافة إلى مَنْ فوقهم، وهم يعلمون فَضْلَ أولئك، فلو تفكَّروا فيما فَاتَهم من

ذلك وقعت الحسراتُ، غير أنَّ ذلك لا يكون، لأنَّ ذلك لا يقعُ لهم لِطِيْبِ منازلهم، ولا يقع في الجنَّةِ غَمٌّ، ويرضى كلٌّ بما أُعطي من وجهين: أحدهما: أنَّه لا يظنُّ أن يكون نعيمٌ فوقَ ما هو فيه، وإن عَلَت منزلة غيره. والثاني: أنه يُحبَّب إليه كما يُحبَّبُ إليه ولده المستوحش الخِلْقَة، فيُؤثره على الأجنبيِّ المُستَحْسَن.

إلَّا أنَّ تحتَ هذا معنًى لطيفاً، وهو أنَّ القومَ خُلقت لهم هممٌ قاصرة في الدُّنيا عن طلب الفضائل، ويتفاوتُ قصورها.

فمنهم من يحفظ بعضَ القرآن، ولا يتُوق إلى التَّمام، ومنهم مَنْ يسمع يسيراً من الحديث، ومنهم مَنْ يعرف قليلاً من الفقه، ومنهم مَنْ قد رضيَ من كل شيء بيسيره، ومنهم مقتصرٌ على الفرائض، ومنهم قنوعٌ بصلاة ركعتين في الليل.

ولو علت بهم الهِمَمُ لجَدَّت في تحصيل كلِّ الفضائل، ونَبَتْ عن النَّقصِ، فاستخدمت البدنَ، كما قال الشاعر:

ولكلِّ جسمٍ في النحولِ بليةٌ ... وبلاءُ جِسْمِي مِنْ تَفاوتِ هِمَّتي

ويدلُّ على تفاوتِ الهِمَم أنَّ في الناس مَنْ يسهر في سماع سَمَر، ولا يسهلُ عليه السَّهَر في سماع القرآن.

والإنسانُ يُحشرُ ومعه تلك الهِمَّة، فتعطى على مقدار ما حصَّلت في الدنيا، فكما لم تَتُقْ إلى الكمال، وقَنِعتْ بالدُّون، قَنِعتْ في الآخرة بمِثْلِ ذلك.

ثم إنَّ القومَ يتفكَّرون بعقولهم، فيعلمون أنَّ الجزاءَ على قَدْرِ العمل، ولا يطمع مَنْ صلَّى ركعتين في ثواب مَنْ صلَّى ألفاً.

فإن قال قائل: فكيف يتصوَّر لها أن لا تَرومَ ما ناله مَنْ هو أفضلُ منها؟ قلتُ: إن لم يتصوَّرْ نَيْله يتصوَّر الحزنُ على قوَّته، وهل رأيتَ عاميَّاً يحزن على فَواتِ الفقه حزناً يُقْلِقه؟ هيهات لو كان ذلك الحزنُ عنده لحرَّكه إلى التشاغل، فليس عندهم همَّة تُوجب الأسفَ، مع أنهم قد رضوا بما هم فيه. فافهم ما قلتُهُ، وبادِرْ، فهذا ميدانُ السِّباق.

صورة من الصبر وعلوِّ الهمَّة
في حياة ابن الجوزي رحمه الله

تأمَّلتُ أحوالَ النَّاس في حالة علوِّ شأنهم، فرأيتُ أكثرَ الخلق تبيَّن خسارُهم حينئذ، فمنهم مَن بالغ في المعاصي من الشباب، ومنهم مَنْ فرَّط في اكتساب العلم، ومنهم مَنْ أكثر من الاستمتاع باللذات حينئذ، فكلُّهم نادمٌ في حالة الكِبَر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت، أو قُوًى ضعُفت، أو فضيلةٍ فاتت، فيمضي زمان الكِبَر في حسرات، فإن كانت للشيخ إفاقةٌ من ذنوب قد سلفت قال: واأسفا على ما جنيت! وإن لم يكن له إفاقةٌ صار متأسفاً على فواتِ ما كان يلتذُّ به.

فأمَّا مَنْ أنفق عَصْرَ الشباب في العلم، فإنَّه في زمن الشَّيخوخة يحمَدُ جنيَ ما غرس، ويلتذُّ بتصنيف ما جمع، ولا يرى ما يفقِد من لذَّات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما يناله من لذَّاتِ العلم، هذا مع وجودِ لذاته في الطلب الذي كان تأمَّل به إدراكَ المطلوب، وربَّما كانت تلك الأعمالُ أطيبَ مما نيل منها، كما قال الشاعر:

أهتزُّ عند تمنِّي وَصْلِها طرباً   ورُبَّ أمنيةٍ أحلى مِنَ الظَّفَرِ

ولقد تأمَّلتُ نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارَهم في اكتسابِ الدُّنيا، وأنفقتُ زَمَنَ الصَّبوة والشباب في طلبِ العلم، فرأيتَني لم يفتني مما نالوه إلَّا ما لو حصلَ لي ندمتُ عليه، ثم تأمَّلت حالي، فإذا عيشي في الدُّنيا أجودُ من عيشهم، وجاهي بينَ الناس أعلى من جاههم، وما نِلْتُهُ من معرفة العلم لا يقاوم. فقال لي إبليس: ونسيتَ تَعبَك، ولولا خطايا لا يخلو منها البشرُ، لقد كنت أخافُ على نفسي من العُجْب، غير أنَّه عزَّ وجلَّ صانني، وعلَّمني، وأطلعني من أسرارِ العلم على معرفته، وإيثارِ الخلوة به، حتى إنَّه لو حضر معي معروفٌ وبِشْرٌ لرأيتهما زحمة.

ثم عادَ فغمسني في التقصير والتفريط حتى رأيت أقلَّ الناس خيراً منِّي، وتارةً يوقظني لقيام الليل ولذةِ مناجاته، وتارةً يحرمني ذلك مع سلامة بدني، ولولا بشارةُ العلم بأنَّ هذا نوع تهذيب وتأديب، لخرجت إمَّا إلى العُجْب عند العمل، وإمَّا إلى

اليأس عند البطالة، لكن رجائي في فضله قد عادلَ خوفي منه، وقد يغلِب الرَّجاء بقوة أسبابه؛ لأنِّي رأيته قد ربَّاني منذ كنتُ طفلاً، فإنَّ أبي مات وأنا لا أعقِل به، والأمُّ لم تلتفت إليَّ، فركز في طبعي حبُّ العلم، وما زال يوقعني على المهمِّ فالمُهِمِّ، ويحملني إلى مَن يحملني على الأصوب، حتى قوَّم أمري، وكم قد قصدني عدوٌّ فصدَّه عني، وإذ رأيته قد نصرني، وبصَّرني، ودافع عنِّي.

ووهب لي قوي رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي، ولقد تاب على يديَّ في مجالس الذكر أكثرُ من مئتي ألف، وأسلمَ على يدي أكثر من مئتي نفس، وكم سالت عين متجبِّرٍ بوعظي لم تكن تسيل، ويحقُّ لمن تلمَّح هذا الإنعام أن يرجو التمام، وربما لاحت أسبابُ الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي.

ولقد جلست يوماً، فرأيت حولي أكثرَ من عشرة آلاف ما فيهم إلَّا مَنْ قد رقَّ قلبه، أو دمَعت عينُه، فقلت لنفسي: كيف بكِ إن نجوا وهلكتَ؟! فصحتُ بلسان وَجْدي: إلهي وسيدي، إن قضيتَ عليَّ بالعذاب غداً فلا تُعلمْهُم بعذابي صيانةً لكرمك لا لأجلي؛ لئلا يقولوا: عذَّبَ مَنْ دلَّ عليه، إلهي، قد قيل لنبيّك ﷺ: اقتل ابنَ أُبيٍّ المنافق، فقال: «لا يتحدَّث النَّاسُ أنَّ محمَّداً يقتلُ أصحابَه»(١).

إلهي فاحفظ حُسْنَ عقائِدهم فيَّ بكرمك أن تعلمَهم بعذابِ الدليلِ عليك.

حاشاك والله يا رب من تكدير الصافي!

لا تَبْرِ عوداً أنت ريَّشْتَه حاشا لباني الجودِ أن يَنْقُضا

لا تُعْطِشِ الزَّرعَ الذي نَبْتُهُ بصَوبِ إنعامِك قد رُوِّضا

(١) صحيح البخاري (٤٩٠٥) و(٤٩٠٧)، وصحيح مسلم (٢٥٨٤) (٦٣) من حديث جابر.

الفصل الثاني

في حقيقة العلم وشرفه

شرف العلم

ليس في الوجود شيءٌ أشرفُ من العلم، كيف لا وهو الدليلُ، فإذا عُدِم وقع الضَّلال.

وإنَّ من خَفيِّ مكائد الشيطان أن يُزيِّن في نفس الإنسان التعبُّد؛ ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم، حتى إنَّه زيَّن لجماعةٍ من القدماء أنَّهم دفنوا كتبَهم ورموها في البحر، وهذا قد ورد عن جماعةٍ، وأحسنُ ظنِّي بهم أن أقول: كان فيها شيءٌ من رأيهم وكلامهم فما أحبوا انتشارَه، وإلَّا فمتى كان فيها علمٌ مفيدٌ صحيحٌ لا يُخافُ عواقبه، كان رميُها إضاعةً للمال لا يَحِلُّ، وقد دنت حيلةُ إبليس إلى جماعة من المتصوِّفةِ حتى مَنعوا من حملِ المحابر تلامذَتهم، حتى قال جعفر الخلدي: لو تركني الصُّوفية جئتكم بإسنادِ الدنيا، كتبتُ مجلساً عن العباس الدُّوري، فلقيني بعضُ الصُّوفية فقال: دع علم الوَرَق، وعليك بعلم الخِرَق، ورأيت محبرةً مع بعضِ الصُّوفية، فقال له صوفيٌّ: استر عورتَك.

وقد أنشدوا للشِّبلي:

إذا طالبوني بعلمِ الوَرَق ... برزت عليهم بعلمِ الخِرَق

وهذا من خفيِّ حيلِ إبليس: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠]، وإنَّما فعل وزيَّنه عندهم لسببين: أحدهما: أنَّه أرادهم يمشون في الظلمة، والثاني:

أنَّ تصفُّح العلم كلَّ يومٍ يزيدُ في العالِم، ويكشِفُ له ما كان خفِي عنه، ويقوِّي إيمانه ومعرفته، ويريه عيبَ كثير من مسالكه إذا تصفَّح منهاج الرسولِ ﷺ والصحابة، فأراد إبليسُ سدَّ تلك الطُّرق بأخفى حيلة، فأظهر أنَّ المقصودَ العمل لا العلم لنفسِه، وخفي على المخدوع أنَّ العلم عملٌ وأيُّ عمل، فاحذر من هذه الخديعةِ الخفيَّة، فإنَّ العلم هو الأصلُ الأعظم، والنورُ الأكبر.

لذَّة العلم أعظم اللذَّات

لقد غفل طلّاب الدُّنيا عن اللَّذة فيها، واللَّذةُ فيها شرفُ العلم، وزهرة العفَّة، وأَنَفةُ الحميَّة، وعزُّ القناعة، وحلاوةُ الإفضال على الخَلْق، فأمَّا الالتذاذ بالمَطْعم والمَنْكح فشُغْل جاهلٍ باللذة؛ لأنَّ ذاك لا يراد لنفسِهِ، بل لإقامة العوض في البدن والولد.

وأيُّ لذةٍ في النكاح وهي قبل المباشرة لا تحصل، وفي حال المباشرة قلق لا يثبتُ، وعند انقضائها كأن لم تكن، ثم تثمر الضَّعف في البدن.

وأيُّ لذَّةٍ في جمعِ المالِ فضلاً عن الحاجة، فإنَّه مستعبِدٌ للخازن، يبيت حذراً عليه، ويدعوه قليلُه إلى كثيره.

وأيُّ لذَّةٍ في المطعم وعند الجوع يستوي خشنه وحسنه؛ فإن ازداد الأكل خاطر بنفسه.

قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: بُنيت الفتنة على ثلاث: النساءُ وهنَّ فخُّ إبليس المنصوب، والشَّراب، وهو سيفه المرهفُ، والدينارُ والدرهم، وهما سهماه المسمومان. فمَنْ مال إلى النِّساء لم يَصفُ له عيشٌ، ومَن أحبَّ الشراب لم يمتَّع بعقلِهِ، ومَنْ أحبَّ الدِّينارَ والدرهم كان عبداً لهما ما عاشَ.

فضل العلم في قطع ظلمات الجهل والهوى

مما يزيدُ العلم عندي فضلاً، أنَّ قوماً تشاغلوا بالتعبُّد عن العلم، فوقفوا عن الوصول إلى حقائق الطلب.

فرُوي عن بعض القدماء، أنَّه قال لرجل: يا أبا الوليد إن كنت أبا الوليد، يتورَّع أن يَكْنِيه ولا ولد له، ولو أوغلَ هذا في العلم لعُلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ كنَّى صهيباً أبا يحيى، وكنَّى طفلاً فقال: «يا أبا عمير، ما فعل النُّغَير»(١)؟!

وقال بعضُ المتزهِّدين: قيل لي يوماً: كُلْ من هذا اللبن، فقلت: هذا يضرُّني، ثم وقفت بعد مدَّةٍ عند الكعبة، فقلت: اللهمَّ إنَّك تعلم أنِّي ما أشركتُ بك طرفةَ عين، فهتف بي هاتف: ولا يوم اللبن! وهذا لو صحَّ جاز أن يكون تأديباً له، لئلا يقف مع الأسباب ناسياً للمسبب، وإلَّا فالرسولُ ﷺ قد قال: «ما زالت أكْلَةُ خيبر تعاودني الآن حتى قطعتْ أبْهَري»(٢). وقال: «ما نفعني مالٌ كمالِ أبي بكر!»(٣).

ومن المتزهدين أقوامٌ يرون التوكلَ قطعَ الأسباب كلِّها، وهذا جهل بالعلم، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل الغار، وشاور الطبيب، ولبس الدِّرْع، وحفر الخندق، ودخل مكَّة في جوار المُطْعم بن عديٍّ وكان كافراً، وقال لسعد: «لأَنْ تدعَ ورثتَك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالةً يتكفَّفون النَّاس»(٤) فالوقوف مع الأسباب مع نسيان المسبِّب غلطٌ، والعمل على الأسباب مع تعلقِ القلبِ بالمسبب هو المشروع، وكلُّ هذه الظلمات إنَّما تُقْطع بمصباحِ العلم، ولقد ضلَّ مَنْ مشى في ظلمة الجهل أو في زقاق الهوى.

حقيقة العلم

رأيت أكثرَ الخلق في وجودهم كالمعدومين، فمنهم مَنْ لا يعرف الخالقَ، ومنهم مَنْ يُثبته على مقتضى حسِّه، ومنهم مَنْ لا يفهم المقصودَ من التَّكليف، فترى المترسِّمين بالزُّهد يَدْأبون في القيام والقعود، ويتركون الشهوات، وينسون ما قد أَنِسوا من شهوةِ الشُّهرة، وتقبيل الأيادي، ولو كُلِّم أحدُهم قال: أَلمثلي يُقال لهذا؟ ومَنْ فلان الفاسق؟! فهؤلاء لا يفهمونَ المقصود.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢١٣٧)، والبخاري في «صحيحه» (٦١٢٩) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥١٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد (٧٤٤٦) من حديث أبي هريرة، وإسناده صحيح.

(٤) صحيح البخاري (٢٧٤٢)، وصحيح مسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص.

وكذلك كثيرٌ من العلماء في احتقارهم غيرَهم، والتكبُّر في نفوسهم، فتعجَّبت كيف يَصلحُ هؤلاء لمجاورة الحقِّ وسكنى الجنَّة؟ فرأيت أنَّ الفائدة في وجودهم في الدنيا، تجانسُ الفائدة في دخولهم الجنَّة، فإنَّهم في الدنيا بين معتبرٍ به، يُعرِّف عارفَ الله سبحانه نعمةَ الله عليه بما كَشَف له مما غَطَّى عن ذاك، ويتمُّ النظام بالاقتداء تصور أولئك، فإنَّ العارف لا يتسعُ وقته لمخالطة مَنْ يقف مع الصورة، فالزَّاهد كراعي البَهْم، والعالمُ كمؤدِّب الصِّبيان، والعارفُ ملقن الحكمة، ولولا نقَّاطُ المَلِك، وحارسُه، ووقَّاد أَتونه، ما تمَّ عيشُه.

فمن تمامِ عيش العارف استعمالُ أولئك بحسبهم، فإذا وصلوا إليه حرر مانعهم، وفيهم مَنْ لا يصل إليه، فيكون وجودُ أولئك كزيادة «لا» في الكلام وهي حشو، وهي مؤكدة، فإن قال قائل: فهب هذا يصِحُّ في الدنيا، فكيف في الجنَّة؟ والجواب: أنَّ الأُنسَ بالجيران مطلوب، ورؤيةَ القاصر من تمام لذة الكامل، ولكلٍّ شِرْبٌ، ومَنْ تأمَّل ما أشرتُ إليه، كفاه رمزُ لفظي عن تطويل الشَّرح.

حقيقة العلم لا صورة العلم

رأيتُ أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده.

فالقارئ مشغولٌ بالرِّوايات، عاكفٌ على الشواذِّ، يرى أنَّ المقصود نفسُ التلاوة، ولا يتلمَّح عظمة المتكلم، ولا زجرَ القرآن ووعدَه، وربَّما ظنَّ أنَّ حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخَّص الذنوب، ولو فهم لعلم أنَّ الحجة عليه أقوى ممَّن لم يقرأ.

والمحدِّث يجمع الطُّرق، ويحفظ الأسانيد، ولا يتأمَّل مقصودَ المنقول، ويرى أنَّه قد حفظ على الناسِ الأحاديث، فهو يرجو بذلك السَّلامة، وربَّما ترخَّص في الخطايا ظنًّا منه أنَّ ما فعل في الشريعة يدفعُ عنه.

والفقيهُ قد وقع له أنَّه قد عرف من الجدال الذي يقوِّي به خصامه، والمسائل التي قد عرف فيها المذهب، قد حصل بما يُفتي به الناس ما يرفع قَدْرَه، ويمحو ذنبه، فربَّما هجم على الخطايا ظنًّا منه أنَّ ذلك يدفع عنه، وربَّما لم يحفظِ القرآن

ولم يعرفِ الحديث، وأنَّهما ينهيان عن الفواحش بزجر ورفق، وينضاف إليه مع الجهل بهما حبُّ الرياسة، وإيثارُ الغَلَبة في الجدل؛ فتزيد قسوةُ قلبه.

وعلى هذا أكثرُ الناس، صُوَرُ العلم عندهم صناعة، فهي تكسِبهم الكِبْر، والحماقة.

وقد حكى بعضُ المعتبرين عن شيخ أفنى عمره في علومٍ كثيرة، أنَّه فُتن في آخر عمره بفسق أصرَّ عليه، وبارز الله به، وكانت حاله تعطي بمضمونها أنَّ علمي يدفع عني شرَّ ما أنا فيه ولا يبقى له أثر، وكان كأنَّه قد قطع لنفسه بالنجاة، فلا يرى عنده أثرٌ لخوف، ولا ندمَ على ذنبٍ، قال: فتغيَّر في آخر عمره، ولازمه الفقر، فكان يلقى الشدائد، ولا ينتهي عن قبح حاله، إلى أن جُمعت له يوماً قراريط على وجه الكُدْية فاستحيا من ذلك، وقال: يا رب إلى هذا الحدِّ؟

قال الحاكي: فتعجبت من غفلته كيف نسي الله عزَّ وجل، وأراد منه حسنَ التدبير له، والصيانة، وسعة الرزق، وكأنَّه ما سمع قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، ولا علم أنَّ المعاصي تسدُّ أبواب الرزق، وأنَّ مَنْ ضيَّع أمر الله ضيَّعه الله، فما رأيت علماً ما أفادَ كعلم هذا؛ لأنَّ العالم إذا زلَّ انكسر، وهذا مُصرٌّ لا تُؤلمه معصيتهُ، وكأنَّه يجوز له ما يفعل، أو كأنَّ له التصرُّف في الدين تحليلاً وتحريماً، فمَرِض عاجلاً، ومات على أقبح حال.

قال الحاكي: ورأيت شيخاً آخر حصَّل صور علمٍ فما أفادته، كان أي فسق أمكنه لم يتحاشَ منه، وأيَّ أمرٍ لم يعجبه من القَدَرِ عارضه بالاعتراضِ على المقدِّر واللوم، فعاش أَكْدَرَ عَيْشٍ، وعلى أقبح اعتقاد حتى درج.

وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم، وليس العلمُ صور الألفاظ، وإنَّما المقصود فهم المراد منه، وذاك يورثُ الخشية والخوف، ويرى المنَّة للمنعم بالعلم، وقوة الحجة له على المتعلم.

نسأل الله عزَّ وجل يقظةً تُفهمنا المقصود، وتعرِّفنا المعبود، ونعوذ بالله من سبيل رعاع يتسمَّون بالعلماء لا ينهاهم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون، ويتكبَّرون على النَّاس بما لا يعلمون، ويأخذون عَرَض الأدنى وقد نُهوا عمَّا يأخذون، غلبتهم طباعه، وما راضتهم علومهم التي يدرسون، فهم أخسُّ حالاً من العوام الذين يجهلون ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

العلم يورث الخوف من الله

لما رأيتُ رأيَ نفسي في العلم حسناً، فهي تقدِّمه على كل شيء، وتعتقد الدليل، وتفضِّل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله في النوافل أنِّي رأيت كثيراً ممن شَغَلهم نوافلُ الصَّلاة والصوم عن نوافل العلم عاد ذلك عليهم بالقَدْح في الأصول، فرأيتها في هذا على الجادة السليمة، والرأي الصحيح، إلَّا أنِّي رأيتها واقفةً مع صورة التشاغل بالعلم، فصحتُ بها فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوفُ؟ أين القلقُ؟ أين الحذرُ؟ أَوَ ما سمعتِ بأخبار أخيار الأحبارِ في تعبدهم واجتهادهم؟

أما كان الرَّسولُ ﷺ سيِّد الكلِّ، ثم إنَّه قام حتى وَرِمَتْ قدماه.

أَما كان أبو بكر رضي الله عنه شجيَّ النشيج، كثير البكاء.

أما كان في خدِّ عمر رضي الله عنه خطَّان من آثار الدموعِ.

أما كان عثمانُ رضي الله عنه يختمُ القرآن في ركعة.

أما كان عليٌّ رضي الله عنه يبكي بالليلِ في محرابه حتى تَخضلَّ لحيتهُ بالدموع، ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري.

أما كان الحسنُ البصري على قوة القلق.

أما كان سعيدُ بنُ المسيب ملازماً للمسجد، فلم تفته صلاةٌ في جماعة أربعين سنة.

أما صام الأسودُ بن يزيد حتى اخضرَّ واصفرَّ؟

أما قالت بنتُ الربيع بن خُثَيْم له: ما لي أرى الناسَ ينامون وأنت لا تنام؟ فقال: إنَّ أباكِ يخاف البيات!

أما كان أبو مسلم الخولاني يعلقُ سوطاً في المسجد يؤدب نفسه إذا فتَر؟

أما صامَ يزيد الرَّقاشي أربعين سنةً، وكان يقول: وَالَهفاه سبقني العابدون، وقُطِع بي!

أما صام منصور بنُ المعتمر أربعين سنة؟

أما كان سفيان الثوري يبكي الدمَ من الخوف؟

أما كان إبراهيمُ بن أدهم يبول الدمَ من الخوف؟

أَما تعلمين أخبارَ الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبُّدهم: أبو حنيفة، ومالك، والشافعيُّ، وأحمد، فاحذري من الإخلاد إلى صورةِ العلم، مع ترك العملِ به، فإنَّها حالةُ الكُسالى الزَّمنى:

وخـذْ لـكَ مـنـك عـلـى مـهـلـةٍ ومـقـبـلُ عـيـشـك لـم يُـدْبِـر
وخَـفْ هـجـمـةً لا تُـقـيـلُ الـعِـثـا ر وتـطـوي الـورودَ عـلـى الـمَـصْـدَر
ومـثِّـل لـنـفـسـك أيَّ الـرعـيـ ـلِ يـضـمُّـك فـي حَـلْـبَـةِ الـمَـحْـشَـر

المواظبة على العلم

أفضلُ الأشياء التزايدُ من العلم، فإنَّه مَنِ اقتصر على ما يعلمُه، فظنَّه كافياً استبدَّ برأيه، وصار تعظيمُهُ لنفسه مانعاً له من الاستفادة، والمذاكرة تبين له أخطاؤه، وربما كان مُعظَّماً في النفوس، فلم يُتَجاسر على الردِّ عليه، ولو أنه أظهر الاستفادة لأُهدِيَتْ إليه مساويه، فعادَ عنها.

العلم أشرف مكتسب

ومما ينبغي أن يُتَّبَعَ فيه الدليلُ ولا يُلتَفَت إلى ما جنت الحال، أنَّ العلمَ أشرفُ مكتسب، وقد رأى جماعةٌ من الجهلةِ قلةَ حظوظ العلماء من الدُّنيا، فأزْروا على العلم، وقالوا: لا فائدةَ فيه، وذلك لجهلهم بمقدارِ العلم، فإنَّ تابع الدليل لا يبالي ما جنى، وإنَّما يبينُ الاختبارُ بفقد الغرض.

ولو لم يكن من الدَّليل على صدق نبينا ﷺ إلَّا إعراضُه عن الدنيا، وتضييقُ العيش عليه، ثم لم يخلِّف شيئاً، وحرم أهلَه الميراث، فدلَّ على صدق طلبه

لمطلوبٍ آخر، وربَّما رأى الجاهل قوماً من العلماء يفعلون خطيئةً، فيزدري على العلم، ويدَّعيه ناقصاً، وهذا غلطٌ كبيرٌ، فليتَّق الله العاقل، وليعملْ بمقتضى العقل فيما يُؤمر به من طاعة الله تعالى والعمل بالعلم، وليعلمْ أنَّ الابتلاء في الصَّبر على فوات المطلوبات، وليلزم اتِّباع الدليل، وإن جنى مكروهاً. والله الموفق.

العلم ضرورة للسلامة من الخطأ

تأمَّلتُ الدَّخَل الذي دخل في ديننا في العلم والعمل، فرأيتُهُ من طريقين، قد تقدَّما هذا الدين وأنس بهما.

فأمَّا أصلُ الدَّخل في العلم والاعتقاد، فمن الفلسفة، وهو أنَّ خلقاً من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنعَ به رسول الله ﷺ من الانعكاف على الكتاب والسُّنَّة، فأوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة، وخاضوا في الكلامِ الذي حملهم على مذاهب رَدِيَّة أفسدوا بها العقائد.

وأمَّا أصلُ الدَّخل في باب العمل، فمن الرَّهبانية، فإنَّ خلقاً من المتزهِّدين أخذوا عن الرهبان طريق التقشُّف ولم ينظروا في سِيَرِ نبيِّنا ﷺ وأصحابه، وسمعوا ذمَّ الدنيا وما فهموا المقصود، فاجتمع لهم الإعراض عن علم شرعنا مع سوء الفهمِ للمقصود، فحدثت منهم بدعٌ قبيحة.

فأولُ ما ابتدأ به إبليس أنَّه أمَرَهم بالإعراض عن العلم، فدفنوا كتُبَهُم وغسلوها، وألزمهم زاويةَ التعبُّد فيما زعم، وأظهر لهم من الخُزَعْبَلاتِ ما أوجبَ إقبالَ العوامِّ عليهم، فجعل إلههم هواهم، ولو علموا أنَّهم منذ دفنوا كتبَهم وفارقوا العلمَ انطفأ مصباحُهم؛ ما فعلوا، لكنَّ إبليسَ دقيقُ المَنْقَب. وبالعلم يُعلم فساد الطريقين، ويُهتدى إلى الأصوب، نسأل الله عزَّ وجل ألَّا يحرمنا إيَّاه، فإنَّه النورُ في الظلم، والأنيسُ في الوحدة، والوزيرُ عند الحادثة.

الفصل الثالث

في قيمة الوقت

الوقت رأس مالك فلا تُضِعْه

رأيت عمومَ الخلائق يدفعون الزمانَ دفعاً عجيباً، إنْ طال الليلُ فبحديثٍ لا ينفع، أو بقراءةِ كتابٍ فيه غزاة وسَمَر، وإنْ طال النَّهار فبالنوم، وهم في أطراف النهار على دِجْلَة، أو في الأسواق، فَشبَّهتُهم بالمتحدِّثين في سفينة وهي تجري بهم، وما عندهم خبر.

ورأيت النَّادرين قد فهموا معنى الوجود، فهم في تعبية الزَّاد، والتأهُّبِ للرَّحيل، إلَّا أنَّهم يتفاوتون، وسبب تفاوتهم قلةُ العلم وكثرتُه بما ينفُق في بلد الإقامة.

فالمتيقظون منهم يتطلَّعون إلى الأخبار بالنَّافق هناك، فيستكثرون منه فيزيدُ ربحهم.

والغافلون منهم يحملون ما اتَّفق، وربما خرجوا لا مع خفير، فكم ممَّن قد قطعت عليه الطريق فبقي مفلساً.

فاللهَ اللهَ في مواسم العمر، والبِدارَ البِدارَ قبلَ الفَوَات، واستشهدوا العلمَ، واستدلُّوا الحكمةَ، ونافسوا الزمانَ، وناقشوا النفوسَ، واستظهروا بالزَّاد، فكأنْ قد حدا الحادي فلم يُفهَم صوتُه مِنْ وَقْع دمع النَّدم.

الوقت أشرف من أن يضيع فيما لا ينفع

رأيت العاداتِ قد غلبت على الناس في تضييع الزَّمان، وكان القدماء يُحذِّرون من ذلك.

قال الفُضَيل: أعرف مَنْ يَعدُّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

ودخلوا على رجلٍ من السَّلف، فقالوا: لعلَّنا شَغَلناك؟ فقال: أَصدُقُكم، كنتُ أقرأ، فتركتُ القراءةَ لأجلكم.

وجاء رجلٌ من المتعبِّدين إلى سَرِيٍّ السَّقَطي فرأى عنده جماعة، فقال: صرت مَنَاخَ البطَّالين؟ ثم مضى ولم يجلس.

ومتى لَانَ المَزُورُ طمع فيه الزَّائرُ، فأطال الجلوسَ، فلم يَسْلم من أذى.

وقد كان جماعةٌ قعوداً عند معروف، فأطالوا، فقال: إنَّ مَلَكَ الشمس لا يفترُ في سَوْقها، أفما تُريدون القيامَ؟

وممَّن كان يحفظ اللحظاتِ عامرُ بن عبد قيس، قال له رجل: قِفْ أُكلِّمك، قال: فأمسكِ الشمسَ.

وكان داود الطَّائي يستفُّ الفَتيتَ، ويقول: سفُّ الفَتيتِ وأكلِ الخبز قراءةُ خمسين آية.

وكان عثمان الباقلاني دائمَ الذِّكر لله تعالى، فقال: إني وقتَ الإفطار أحسُّ بروحي كأنَّها تخرجُ لأجل اشتغالي بالأَكْل عن الذِّكر.

وأوصى بعضُ السَّلَفِ أصحابَه، فقال: إذا خرجتُم من عندي فتفرَّقوا، لعلَّ أحدَكُم يقرأُ القرآنَ في طريقه، ومتى اجتمعتُم تحدَّثتم.

واعلم أنَّ الزَّمانَ أشرفُ من أن يضيَّع منه لحظة، فإنَّ في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قال سبحان الله العظيم وبحمده غُرِستْ له بها نخلةٌ في الجنَّة»[(١)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٦٤) و(٣٤٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٩٤) من حديث جابر.

فكم يُضيِّع الآدميُّ من ساعات يفوته فيها الثوابُ الجزيل، وهذه الأيامُ مثلُ المزرعة، فكأنَّه قيل للإنسان: كلَّما بذرْت حبَّةً أخرجنا لك ألفَ كُرٍّ(١)، فهل يجوز للعاقل أن يتوقَّف في البذر ويتوانى؟

والذي يُعينُ على اغتنام الزمان: الانفرادُ، والعزلةُ مهما أمكن، والاختصارُ على السَّلام، أو حاجةٍ مهمَّة لمن يَلْقى، وقلةُ الأكل، فإنَّ كثرتَه سببُ النَّوم الطويل، وضياع الليل.

ومَنْ نظر في سير السلف، وآمن بالجزاء بان له ما ذكرتُه.

اغتنم ساعات عمرك

من عجائب ما أرى من نفسي ومن الخلق كلِّهم الميلُ إلى الغَفْلة عمَّا في أيدينا مع العلم بقِصَر العُمر، وإنَّ زيادةَ الثواب هناك بقدر العملِ هاهنا.

فيا قصيرَ العمر اغتنم يَومَي مِنًى، وانتظر ساعةَ النَّفر، وإياك أن تشغلَ قلبك بغير ما خُلق له، واحمل نفسكَ على المُرِّ، واقمعها إذا أَبَتْ، ولا تُسَرِّحُ لها في الطِّوَل، فما أنت إلَّا في مرعًى، وقبيحٌ بمَن كان بين الصَّفَّين أن يتشاغلَ بغير ما هو فيه.

من يفهم معنى الوجود يغتنم زمناً نهايتُه الخلود

واعجباً من موجودٍ لا يفهمُ معنى الوجود! فإنّ فَهِم لم يعملْ بمقتضى فهمه، يعلم أنَّ العُمُرَ قصير، وهو يضيعه بالنَّوم، وبالبطالة، والحديث الفارغ، وطلب اللذات، وإنَّما أيامه أيامُ عَمَل لا زمان فراغ، وقد كَلِفَ بذلَ المال بمخالفة الطبع من الشرع، فبخل به إلى أن تضايقَ الخناق، فيقول حينئذ: فرِّقوا عني بعد موتي، وافعلوا كذا، فأين يقعُ هذا لو فعل؟

وبعيدٌ أن يفعل، وإنَّما يراد بإنفاقك في صحتك مخالفة الطبع في تكلُّفِ مشاق الإخراج في زمن السلامة، فافرق بين الحالتين إنْ كان لك فهم.

---

(١) الكرُّ: مكيال لأهل العراق.

فالسعيدُ من انتبه بنفسه، وعمل بمقتضى عقلِهِ واغتنم زمناً نهايته الخلود، وانتهب عمراً يا قُرْب انقطاعِهِ، ويحكَ ما تصنع بادِّخار مال لا يؤثر حسنةً في صحيفة، ولا مكرمة من تاريخ؟! أما سمعت بإنفاق أبي بكر، وبُخل ثعلبة؟ أما رأيت تأثيرَ مدح حاتم وبخل الحباحب؟ ويحكَ لو ابتلاك في مالك لاستغثت، أو في بدنك ليلة بمرض لشكوت، فأنت تستوفي مطلوباتك منه، ولا تستوفي حقَّه عليك ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] ولتعلمْ أنَّ هذا القدرَ المفرَّط فيه يحل الخلود الدائم في ثواب العملِ فيه.

فسبحان مَنْ منَّ على أقوام فهموا المراد، فأتعبوا الأجسادَ، وغطَّى على قلوب آخرين، فوجودُهم كالعدم، وكيف لا يُتْعِبُ العاقلُ بدَنَه إتعاب البُدْن والمقصود منّي؟

أترى ما بال الحقِّ متجلِّياً في إيجادك أيها العبد؟ بلى والله، إنَّ وجودَك دليلُ وجوده، وإنَّ نعمَه عليك دليلُ جُوْده، فكما قدَّمك على سائرِ الحيوانات، فقدِّمْه في قلبك على كل المطلوبات.

وَاخَيْبَةَ من جَهِلَهُ! وافقرَ مَنْ أعرضَ عنه! واذُلَّ مَن اعتزَّ بغيره! واحَسْرة مَن اشتغلَ بغير خدمته.

لا تفوتُ ساعة من عمرك لتقدِّم الأفضلَ من القول والعمل

ينبغي للإنسان أن يعرفَ شرفَ زمانه، وقَدْرَ وقته، فلا يُضيعَ منه لحظةً في غير قُربة، ويُقدِّم الأفضلَ فالأفضلَ من القول والعمل، ولتكن نيتُهُ في الخير قائمةً، من غير فتور بما يَعْجِزُ عنه البدنُ من العمل، كما جاء في الحديث: «نية المؤمنِ خيرٌ من عمله»(١).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٦/ ١٨٥ (٥٩٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٢٥٥ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
وأخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» ١٢/ ٢٦٥ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
=

وقد كان جماعة في السَّلف يبادرون اللحظاتِ، فنُقِل عن عامر بن عبدِ قيس: أنَّ رجلاً قال له: كلِّمني. فقال له: أمسِكِ الشَّمس.

وقال ابن ثابت البُناني: ذَهبتُ أُلَقِّنُ أَبي، فقال: يا بنيَّ دعني، فإنِّي في وردي السادس.

ودخلوا على بعض السَّلف عند موته وهو يصلي، فقيل له، فقال: الآن تُطوى صحيفتي.

فإذا علمَ الإنسانُ ـ وإن بالغ في الجِدِّ ـ بأنَّ الموت يقطعُهُ عن العمل، عَمِلَ في حياتِهِ ما يدومُ له أَجرُهُ بعد موته، فإن كان له شيءٌ من الدُّنيا، وَقَفَ وقفاً، وغرس غرساً، وأجرى نهراً، ويسعى في تحصيل ذريةٍ تذكرُ الله بعده، فيكون الأجرُ له، أو أن يصنِّف كتاباً من العلم، فإنَّ تصنيفَ العالم ولدُه المخلَّد، وأن يكون عاملاً بالخير، عالماً فيه، فينقل من فعله ما يقتدي الغيرُ به، فذلك الذي لم يَمُت.

قد ماتَ قومٌ وهم في الناس أحياءُ

احْذر صحبةَ البطَّالين

أعوذُ بالله من صحبة البطَّالين، لقد رأيتُ خلقاً كثيراً يجرُّون معي فيما قد اعتاده الناسُ من كثرة الزيارة، ويسمُّون ذلك التردُّد خدمةً، ويطلبون الجلوس، ويُجرون فيه أحاديثَ الناس، وما لا يعني، ويتخلَّله غِيْبة، وهذا شيءٌ يفعله في زماننا كثيرٌ من الناس، وربما طلبه المزورُ، وتشوَّق إليه، واستوحش من الوحدة، وخصوصاً في أيام التَّهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضُهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يَمزُجون ذلك بما ذكرته مِنْ تضييع الزَّمان.

= وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٨) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه. وقال العراقي في تخريج «الإحياء» ٤/ ٣٥٥ إسناده ضعيف.

وأخرجه القضاعي في «الشهاب» (١٤٧)، والبيهقي في «الشعب» من حديث أنس رضي الله عنه. وقال البيهقي: هذا إسناد ضعيف.

فلمَّا رأيتُ أنَّ الزمانَ أشرفُ شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهتُ ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرتُ عليهم وَقَعت وَحْشَةٌ لموضع قطع المألوف، وإن تقبَّلته منهم ضاع الزمانُ، فصرتُ أُدافع اللقاءَ جَهْدي، فإذا غُلِبْتُ، قصَّرتُ في الكلام لأتعجَّل الفِراق، ثم أعددت أعمالاً تمنعُ من المحادثة لأوقات لقائهم؛ لئلا يمضيَ الزمانُ فارغاً، فجعلتُ من المستعدّ للقائهم قَطْعُ الكاغد وبَرْيُ الأقلام، وحزمُ الدفاتر، فإنَّ هذه الأشياء لا بدَّ منها، ولا تحتاجُ إلى فكرٍ وحضور قلب، فأرصدتُها لأوقات زيارتهم؛ لئلا يضيع شيءٌ من وقتي.

نسأل الله عزَّ وجل أن يعرِّفَنا شرفَ أوقات العمر، وأن يوفِّقنا لاغتنامه!

ولقد شاهدتُ خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم مَنْ أغناه الله عن الكسب بكثرة ماله، فهو يقعدُ في السُّوق أكثرَ النَّهار ينظر إلى الناس، وكم تمرُّ به من آفةٍ ومنكر. ومنهم مَنْ يخلو بلعب الشِّطرنج، ومنهم مَنْ يقطع الزمان بكثرة الحوادث من السلاطين والغلاء والرُّخص إلى غير ذلك، فعلمتُ أنَّ الله تعالى لم يُطْلِعْ على شرف العُمُر ومعرفة قدر أوقاتِ العافية إلَّا مَنْ وَفَّقه وألهمه اغتنام ذلك: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

الفصل الرابع

في اقتضاء العلم العمل

العمل بالعلم هو الأصل

لقيت مشايخَ أحوالُهم مختلفةٌ، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعَهم لي في صحبته العاملُ منهم بعلمه، وإن كان غيرُه أعلمَ منه.

ولقيت جماعةً من علماء الحديث يحفظون ويعرفون، ولكنَّهم كانوا يتسامحون بِغيبةٍ يُخرجونها مخرج جرحٍ وتعديل، ويأخذون على قراءة الحديث أجرةً، ويُسرعون الجواب؛ لئلا ينكسر الجاهُ وإن وقع خطأ.

ولقيت عبدَ الوهاب الأنماطي فكان على قانون السَّلف، لم يُسْمَعْ في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأتُ عليه أحاديث الرقائق بكى، واتصل بكاؤه، فكنت ـ وأنا صغير السنِّ حينئذ ـ يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد، وكان على سَمْتِ المشايخ الذين سمعنا أوصافَهم في النقل.

ولقيت الشيخَ أبا منصور الجواليقي، فكان كثيرَ الصَّمت، شديدَ التَّحرِّي فيما يقوم، مُتقناً مُحقِّقاً، وربما سُئل المسألةَ الظاهرة التي يبادرُ بجوابها بعضُ غلمانه فيتوقف فيها حتى يُتْقِن، وكان كثيرَ الصَّوم والصَّمت.

فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثرَ من انتفاعي بغيرهما، ففهمتُ من هذه الحالة أنَّ الدليل بالفعل أرشدُ من الدليل بالقول.

ورأيت مشايخ كانت لهم خلواتٌ في انبساطٍ ومِزاح، فراحوا عن القلوب، وبدَّد تبديدُهم ما جمعوا من العلم، فقلَّ الانتفاعُ بهم في حياتهم، ونُسُوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحدٌ أن يلتفت إلى مصنَّفاتهم.

فاللهَ اللهَ في العلم بالعمل، فإنَّه الأصل الأكبر، والمسكينُ كلُّ المسكين مَنْ ضاع عمره في علمٍ لم يعملْ به، ففاته لذاتُ الدُّنيا، وخيراتُ الآخرة، فقدِم مفلساً على قوة الحُجَّة عليه.

الخَلْق بين العلم والعمل

تأمَّلت المرادَ من الخَلْق، فإذا هو الذلُّ، واعتقاد التقصير والعجز، ومثَّلتُ العلماء والزُّهَّاد العاملين صنفين، فأقمتُ في صفِّ العلماء مالكاً، وسفيانَ، وأبا حنيفة، والشافعي، وأحمد، وفي صفِّ العبَّاد مالكَ بن دينار، ورابعة، ومعروفاً الكرخي، وبِشْر بن الحارث.

فكلَّما جدَّ العُبَّاد في العبادة، وصاح بهم لسان الحال: عباداتكم لا يتعدَّاكم نفعُها، وإنَّما يتعدَّى نفعُ العلماء، وهم ورثة الأنبياء، وخلفاء الله في الأرض، وهم الذين عليهم المُعَوَّل، ولهم الفضل، إذا أطرقوا وانكسِروا وعلموا صدقَ تلك الحال.

وجاء مالكُ بن دينار إلى الحسن يتعلَّم منه، ويقول: الحسنُ أستاذُنا.

وإذا رأى العلماءُ لهم بالعلم فضلاً صاح لسانُ الحال بالعلماء: وهل المرادُ من العلم إلَّا العمل؟

وقال أحمد ابن حنبل: وهل يرادُ بالعلم إلَّا لِما وصل إليه معروف؟

وصحَّ عن سفيان الثوري قال: وددتُ أنَّ يدي قُطِعَتْ ولم أكتبِ الحديث.

وقالت أم الدَّرداء لرجل: هل عَمِلْتَ بما عَلِمْتَ؟ قال: لا. قالت: فَلِمَ تَستكثِرُ من حُجَّة الله عليك؟

وقال أبو الدرداء: ويلٌ لمن لم يعلم ولم يعمل مرةً، وويلٌ لمن عَلِمَ ولم يَعْمَلْ سبعين مرَّة.

وقال الفضيلُ: يُغْفَرُ للجاهلِ سبعون ذنباً قبل أن يُغْفَرَ للعالم ذنبٌ واحد، فما يبلغ من الكل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

وجاء سفيان إلى رابعة، فجلس بين يديها ينتفع بكلامها.

فدلَّ العلماءَ العلمُ على أنَّ المقصود منه العملُ به، وأنَّه آلة، فانكسروا، واعترفوا بالتقصير، فحصل الكلُّ على الاعتراف والذلِّ، فاستخرجتِ المعرفةُ منهم حقيقةَ العبودية باعترافهم، فذلك هو المقصود من التكليف.

تأمَّلتُ العلماءَ والمتعلِّمين، فرأيتُ القليلَ من المتعلِّمين مَنْ عليه أمَارة النَّجابة؛ لأنَّ أمارة النجابة طلبُ العلم للعمل به، وجمهورُهم يطلب ما يُصيِّره شبكةً للكسب، إمَّا ليأخذَ قضاءَ مكان، أو ليصير قاضيَ بلد، أو قدر ما يتميَّز به عن أبناء جنسه، ثم يكتفي.

ثم تأمَّلتُ العلماء، فرأيت أكثرَهم يتلاعبُ به الهوى، ويستخدمُهُ فهو يُؤثر ما يصدُّه العلم عنه، ويُقْبِل على ما ينهاه، ولا يكاد يجد ذوقَ معاملة الله سبحانه، وإنَّما همَّتُه أن يقول: ألا إنَّ الله تعالى لا يُخلي الأرض من قائمٍ له بالحجَّةِ، جامعٍ بين العلم والعمل، عارفٍ بحقوق الله تعالى، خائفٍ منه، فذلكً قطبُ الدُّنيا، ومتى مات أخلف الله عِوَضَه، وربَّما لم يمت حتى يرى مَنْ يصلح للنيابة عنه في كل نائبة، ومثل هذا لا تخلو الأرض منه، فهو في مقام النَّبيِّ في الأمَّة، وهذا الذي أصفه يكون قائماً بالأصول، حافظاً للحدود، وربَّما قلَّ علمه أو قلَّت معاملته؛ فأمَّا الكاملون في جميع الأدوات فَيَنْدُرُ وجودُهم، فيكون في الزمان البعيد منهم واحد.

ولقد سَبَرتُ السَّلف كلَّهم، فأردتُ أن أستخرجَ منهم مَنْ جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين، وبين العمل حتى صار قدوةً للعابدين، فلم أرَ أكثر من ثلاثة، أولهم: الحسنُ البصري، وثانيهم: سفيان الثوري، وثالثهم: أحمد بن حنبل، وما أنكرُ على مَنْ ربَّعهم بسعيد بن المسيب، وإن كان في السلف ساداتٌ، إلَّا أنَّ أكثرهم غلب عليه فنٌّ، فنقَص من الآخرِ، فمنهم من غلبَ عليه العلمُ، ومنهم من غلبَ عليه العملُ، وكلُّ هؤلاء كان له الحظُّ الوافر من العلم، والنصيبُ الأوفى من المعاملة والمعرفة، ولا يؤيس مِنْ وجود مَن يحذو حذوَهم، وإن كان الفضلُ

بالسَّبق لهم. فقد أطْلَعَ الله عزَّ وجلَّ الخَضِرَ على ما خفي عن موسى عليهما السلام، فخزائنُ الله مملوءة، وعطاؤه لا يقف على شخص.

من السعادة زيادة عُمر صاحب العلم

دعوتُ يوماً، فقلت: اللهمَّ بلِّغني آمالي من العلم والعمل، وأطلْ عمري لأبلغ ما أحبُّ من ذلك!

فعارضني وسواسٌ من إبليس، فقال: ثم ماذا أليسَ الموت، فما الذي ينفع طول الحياة؟ فقلت له: يا أبله! لو فهمتَ ما تحت سؤالي، علمت أنَّه ليس بعبث، أليس في كلِّ يوم يزيدُ علمي ومعرفتي، فتكثُر ثمارُ غرسي، فأشكر، يعني: يوم حصادي؟ أفيسرُّني أنِّ متُّ منذ عشرين سنة؟ لا والله؛ لأنِّي ما كنت أعرف الله تعالى عُشْر معرفتي به اليوم، وكلُّ ذلك ثمرةُ الحياة التي فيها اجتنيت أدلة الوحدانية، وارتقيت عن حضيض التقليد إلى يفاعِ البصيرة، واطَّلَعْتُ على علوم زادَ بها قدْري، وتجوهرتْ بها نفسي، ثمَّ زاد غرسي لآخرتي، وقويت تجارتي في إنقاذِ المباضعين من المتعلِّمين، وقد قال لسيد المرسلين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي (أنَّه قال: «لا يزيد المؤمن عُمُره إلَّا خيراً»(١).

وفي حديث جابرِ بن عبد الله ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ من السعادة أن يطول عُمُرُ العبد، ويرزقه الله عزَّ وجلَّ الإنابة»(٢).

فياليتني قدرتُ على عُمرِ نوح، فإنَّ العلم كثير، وكلَّما حصل منه حاصلٌ، رفع ونفع.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٥٦٤).

الفصل الخامس

في العلم والكسب وطلب المال

المال وطلب العلم

اعلم أنَّ الآدميَّ قد خُلِق لأمرٍ عظيم، وهو مطالبٌ بمعرفة خالِقِه بالدَّليل، ولا يكفيه التقليدُ، وذلك يفتقر إلى الهمِّ في طلبه، وهو مطالبٌ بإقامة المفروضات، واجتنابِ المحارم.

فإن سَمَتْ همَّته إلى طلب العلم احتاجَ إلى زيادة جمع الهمِّ، فأسعدُ الناس من له قوت دارٌّ بقدر الكفاية، لا من مِنَنِ الناس وصدقاتهم، وقد قَنِع به، فإنَّه حينئذ يجتمع همُّه لمطلوباته من الدين والدنيا والعلم، وأمَّا إذا لم يكن له قوتٌ يكفي، فالهمُّ الذي يريد اجتماعه في تلك الأمور يتشتَّتُ ويصير طالباً للتحيُّل في القوتِ، فيذهبُ العمر في تحصيل قوت البدن الذي يريدُ من بقائه غيرَ بقائه، ويفوِّت المقصودَ ببقائه، وربما احتاجَ إلى الأنذال.

قال الشاعر:

حسبي مِنَ الدهر ما كَفَاني ... يصونُ عِرْضِي عَن الهوانِ

مخافةَ أنْ يقولَ قومٌ ... فضلُ فلان على فلانِ

فينبغي للعاقل إذا رُزِق قوتاً، أو كان له مواد أن يحفظَها ليتجمَّع همُّه، ولا ينبغي أن يبذِّرَ في ذلك، فإنَّه يحتاج، فيتشتَّت همُّه، والنفس إذا أحرزتْ قوتَها اطمأنَّت، فإن لم يكن له مال اكتسبَ بقدْر كفايته، وقلَّل الغلوَّ ليجمع همَّه، وليقنع بالقليل،

فإنَّه متى سمت همَّته إلى فضول المال وقع المحذور من التشتُّت؛ لأنَّ التشتُّت في الأول للعدمِ، وهذا التشتُّت يكون للحرص على الفضول، فيذهبُ العُمُرُ على البارد.

ومَنْ ينفقِ الأيامَ في حفظِ مالِهِ مخافةَ فقرٍ فالذي فعلَ الفقرُ

فافهم هذا يا صاحبَ الهمَّة في طلب الفضائل، فإنَّك ما لم تعزل قوتَ الصبيان شتَّتوا قلبَك، وطَبْعُك طفل، ففرِّغْ همَّك من استعانته، واعرف قدر شرف المالِ الذي أوجب جَمْعَ همِّك، وصان عرضَك عن الخلق، وإيَّاك أن يحملك الكرمُ على فرط الإخراج، فتصير كالفقير المتعرِّض لك بالتعرُّض لغيرك. وفي الحديث: أنَّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ فرأى عليه آثارَ الفقر، فعرَّض به، فأعطي شيئاً، فجاءَ فقيرٌ آخر، فآثره الأول ببعض ما أُعطي، فرماه النبي ﷺ إليه، ونهاه عن مثل ذلك.

والقناعة بما يكفي، وترك التشوُّف إلى الفضول أصلُ الأصول.

ثم فيمَن يطمع؟ إنَّما هو سلطانٌ جائر، أو مُزَكٍّ منَّان، أو صديقٌ مُدلٌّ بما يعطي. والعز ألذُّ من كل لَذَّة، والخروج عن ربقة المِنَن ولو بسفِّ التراب.

عاشق العلم يصبر على الفقر

ما يتناهى في طلبِ العلم إلَّا عاشقُ العلم، والعاشقُ ينبغي أن يصبر على المكاره، ومن ضرورة المتشاغل به البعدُ عن الكسب، ومُذْ فَقَد التَّفقدَ لهم من الأمراء ومن الإخوان لازَمهم الفقرُ ضرورةً، والفضائل تنادي: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١] فكلَّما خافت من ابتلاء، قالت:

لا تحسبِ المجدَ تمراً أنتَ آكلهُ لَنْ تَبْلُغَ المجدَ حتى تَلْعقَ الصَّبِرا

ولما آثر أحمدُ ابن حنبل رضي الله عنه طلبَ العلم وكان فقيراً بقي أربعين سنة يتشاغل به، ولا يتزوَّج.

فينبغي للفقير أن يصابرَ فَقْره كما فعل أحمد، ومن يطيق ما أطاق، فقد ردَّ من المال خمسين ألفاً وكان يأكل الكامِخَ، ويتأدَّم بالملح، فما شاع له الذِّكر الجميلُ

جِزافاً، ولا ترددتِ الأقدام إلى قبره إلا لمعنى عجيب. فيا له ثناءً ملأ الآفاق، وجمالاً زيَّن الوجود، وعزّاً نَسخَ كلَّ ذُلٍّ، هذا في العاجل، وثواب الآجل لا يوصف.

وتلمَّح قبورَ أكثر العلماء، لا تُعْرفُ ولا تُزار، ترخَّصوا وتأوَّلوا، وخالطوا السلاطينَ، فذهبت بركةُ العلم، ومُحِيَ الجاه، ووَرَدوا عند الموت حياض النَّدم، فيَالَها حسراتٍ لا تتلافى، وخسراناً لا ينجبر، كانت صحبةُ اللَّذاتِ طرْفةَ عين، ولازم الأسفُ دائماً، فالصبرَ الصبرَ أيُّها الطالب للفضائل، فإنَّ لذَّة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب، ويبقى الأسى. وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه:

يا نفس ما هو إلَّا صبرُ أيام كأنَّ مُدَّتها أضغاثُ أحلامِ
يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرةً وخَل عنها فإنَّ العَيْشَ قُدَّامِي

ثم أيها العالمُ الفقير أيسرُّك ملك سلطانٍ من السلاطين وأنَّ ما تعلمُه من العلم لا تعلمه، كلّا، ما أظنُّ بالمتيقظ أن يُؤثر هذا.

ثم أنت إذا وقعَ لك خاطرٌ مستحسَنٌ، أو معنى عجيب؛ تجد لذةً لا يجدُها ملتذٌّ باللَّذَّاتِ الحِسِّيَّة، فقد حُرم من رزق الشهوات ما قد رُزقت، وقد شاركتَهم في قوام العيش، ولم يبقَ إلَّا الفضول الذي إذا أُخذ لم يَكَدْ يضُرّ. ثم هم على المخاطرةِ في باب الآخرةِ غالباً، وأنت على السَّلامة في الأغلب، فتلمَّح يا أخي عواقب الأحوال، واقْمَع الكسلَ المثبِّط عن الفضائل، فإنَّ كثيراً من العلماء الذين ماتوا مفرِّطين، يتقلَّبون في حسراتٍ وأسف.

رأى رجلٌ شيخنا ابن الزَّاغُوني في المنام، فقال له الشيخ: أكثرُ ما عندكم الغفلة، وأكثرُ ما عندنا النَّدامة.

فاهرب وفَّقك الله قبل الحبس، وافسَخْ عقد الهوى على الغبن الفاحش، واعلم أنَّ الفضائل لا تُنال بالهوينى، وأنَّ يسير التفريط يَشينُ وجه المحاسن، فالبِدارَ البِدارَ ونَفَسُ النَّفْسِ يتردَّد! وملك الموتِ غائب ما قدم بعدُ، وانهض بعزيمةِ عازم:

إذا همَّ ألْقى بين عينيهِ عَزْمَهُ ونكَّبَ عن ذكرِ الحوادثِ جانبا
ولم يستشرْ في أمرِهِ غيرَ نفسِهِ ولمْ يرضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا

وارفض في هذه العزيمة الدُّنيا وأربابَها، فبارك الله لأهل الدنيا في دنياهم، فنحنُ الأغنياء، وهم الفقراء. كما قال إبراهيمُ بن أدهم: لو علم المملوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه لجالَدُونا عليه بالسُّيوف.

فأبناءُ الدنيا أحدُهم لا يكاد يأكلُ لقمةً إلا حراماً، أو شبهةً، وهو وإن لم يؤثر ذلك، فوكيلُهُ يفعله، ولا يبالي هو بقلةِ دينٍ وكيله، وإن عمَّروا داراً سخَّروا الفَعَلة، وإن جمعوا مالاً فمن وجوهٍ لا تصلح، ثم كلٌّ منهم خائفٌ أن يُقتل أو يُعزل أو يُشتَم، فعيشهم نغصٌ، ونحن نأكل ما ظاهرُ الشَّرع يشهدُ له بالإباحة، ولا نخاف من عدو، ولا ولايتُنا تَقبلُ العَزْل، والعزُّ في الدنيا لنا لا لهم، وإقبالُ الخلقِ علينا، وفي الآخرة بيننا وبينهم تفاوتٌ إن شاء الله تعالى.

فإن لَفَتَ أربابُ الدُّنيا أعناقهم يعلمون قَدْرَ مَزِيَّتنا، وإن غُلَّت أيديهم عن إعطائنا، فلذةُ العفاف أطيبُ، ومرارة المِنن لا تفي بالمأخوذ، وإنَّما هو طعامٌ دون طعام، ولباسٌ دون لباس، وإنَّها أيامٌ قلائل، والعجب لمَنْ شرُفتْ نفسُهُ حتى طلب العلم؛ إذ لا يطلبه إلَّا ذو نفسٍ شريفة، كيف يذلُّ لبذل ما عِزُّه إلَّا بالدنانير، ولا فخرُه إلَّا بالمُكنةِ، ولقد أنشدني أبو يعلى العلوي:

ربَّ قـــومٍ فـــي خـــلائـــقـــهـــم ... عـــررٌ قـــد صـــيَّـــرُوا غـــررا
ســـتـــرَ الـــمـــالُ الـــقـــبـــيـــحَ لـــهـــمْ ... ســـتـــرى إنْ زال مـــا ســـتـــرا

أيقظنا الله من رقدة الغافلين، ورزقنا فكْرَ المتيقظين، ووفَّقنا للعمل بمقتضى العلم والعقل، إنَّه قريبٌ مجيب.

طلب العلم وجَمْع الهمِّ

من العجيب سلامةُ دين ذي العيال إذا ضاقَ به الكسبُ، فما مَثَلُهُ إلَّا كمثل الماء إذا ضُرِبَ في وجهه سِكْر، فإنَّه يعمل باطناً، ويبالغ حتى يفتح فتحةً، فكذلك صاحبُ العيال إذا ضاق به الأمرُ لا يزال يحتال، فإذا لم يقدِرْ على الحلال ترخَّص في تناول الشُّبهات، فإنْ ضعُفَ دينُهُ مدَّ يده إلى الحرام. فالمؤمن إذا علم ضَعْفه عن الكسبِ اجتهد في التعفُّف عن النكاح، وتقليل النفقة إذا حصل الأولاد، والقناعة باليسير.

فأمَّا مَنْ ليس له كسبٌ كالعلماء والمتزهِّدين، فسلامتُهم ظريفة، إذ قد انقطعت موادُ السلاطين، ومراعاة العوام، فإذا كثرت عائلتهم لم يؤمن عليهم شرٌّ ما يجري على الجهَّال. فمَن قَدَر منهم على كسبٍ بالنَّسخ وغيره، فليجتهد فيه مع تقليل النَّفقة والقناعة باليسير، فإنَّ مَنْ ترخَّص منهم اليوم أكلَ الحرام؛ لأنَّه يأخذ من الظَّلَمة خصوصاً بحجَّة التنمُّس والتزهُّد، ومن كان له منهم مال، فليجتهد في تنميته وحفظه، فما بقي مَنْ يُؤثر، ولا مَنْ يُقرِض، وقد صار الجمهور، بل الكلُّ كأنَّهم يعبدون المال، فمَنْ حَفِظه حفظ دينَه، ولا يلتفت إلى قول الجهلة الذين يأمرون بإخراج المال، فما هذا وقتُه.

واعلم أنَّه إذا لم يجتمع الهمُّ، لم يحصل العلمُ، ولا العملُ، ولا التشاغلُ بالفكر في عظمةِ الله، وقد كان همُّ القدماء يجتمعُ بأشياء، جمهورُها أنَّه كان لهم من بيت المالِ نصيبٌ في كلِّ عامٍ، وكان يصلهم فيفضُل عنهم، وفيهم من كان له مال يتَّجر به كسعيد بن المسيِّب، وسفيان، وابن المبارك، وكان همُّه مجتمعاً، فقال سفيان في ماله: لولاك لَتَمَنْدلُوا بي! وفُقدت بضاعةٌ لابن المبارك، فبكى، وقال: هو قوامُ ديني.

وكان جماعةٌ يسكنون إلى عطاءِ الإخوان الذين لا يمنُّون، وكان ابن المبارك يبعثُ إلى الفضل وغيره، وكان الليث بن سعد يتفقَّد الأكابر، فبعث إلى مالك ألف دينار، وإلى ابن لَهيعة ألف دينار، وأعطى منصور بن عمَّار ألف دينار، وجارية بثلاث مئة دينار. وما زال الزمانُ على هذا إلى أن آل الأمر إلى انمحاق ذلك، فقلَّت عطايا السلاطين، وقلَّ مَنْ يُؤثِر من الإخوان، إلَّا أنَّه كان في ذلك القليل ما يدفع الزمان.

فأمَّا زماننا هذا، فقد انقبضت الأيدي كلُّها، حتى قلَّ مَنْ يُخرج الزكاة الواجبة، فكيف يجتمع همُّ مَنْ يريد من العلماء والزهَّاد أن يُعمل همَّه ليلاً ونهاراً في وجوه الكسبِ، وليس من شأنه، ولا يهتدي له؟! فقد رأينا الأمر أحوج إلى التعرُّض بالسلاطين، والترخُّص في أخذ ما لا يصلُح، وأخرج المتزهِّدين إلى التصنُّع لتحصيل الدنيا.

فالله الله يا مَن يريد حفظَ دينه، قد كررتُ عليك الوصيةَ بالتقليل جهدَك، وخفِّف العلائق مهما أمكنَك، واحتفظ بدرهمٍ يكون معك، فإنَّه دينك. وافهم ما قد

شرحته، فإن ضَجَّت النفسُ لمراداتها، فقل لها: إن كان عندك إيمانٌ فاصبري، وإن أردت التحصيلَ لما يفنى ببذل الدِّين فما نفعك، فتفكَّري في العلماء الذين جمعوا المال من غير وجهه وفي المنمِّسين[1]، ذهب دينُهم، وزالت دنياهم، وتفكَّري في العلماء الصادقين، كأحمد، وبِشْر، اندفعت الأيام، وبقي لهم حسنُ الذِّكر.

وفي الجملة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ورزقُ الله قد يكون بتيسير الصبر على البلاء، والأيام تندفع، وعاقبةُ الصبر الجميل جميلة.

طالب العلم الفقير والهمّ بالدنيا

هيهاتَ أن يجتمعَ الهَمُّ مع التلبُّس بأمور الدنيا، خصوصاً بالشابِّ الفقير الذي قد أَلِفَ الفقرَ، فإنَّه إذا تزوجَ وليس له شيء من الدنيا اهتمَّ بالكسب، أو بالطلب من الناس، فتشتَّت همُّه، وجاءه الأولاد، فزاد الأمرُ عليه، ولا يزال يرخِّص لنفسه فيما يحصل إلى أن يتلبَّسَ بالحرام، ومَن ينكر فهمَّتُه ما يأكل وما يأكله أهله، وما ترضى به الزوجةُ من النفقةِ والكسوة، وليس له ذلك، فأي قلبٍ يحضر له؟ وأيُّ همٍّ يجتمع؟ والله لا يجتمعُ الهَمُّ والعين تنظرُ إلى الناس، والسَّمعُ يسمع حديثَهم، واللسان يخاطبهم، والقلب متوزِّعٌ في تحصيل ما لا بدَّ منه. فإن قال قائل: فكيف أصنع؟ قلت: إن وجدتَ ما يكفيك من الدُّنيا، أو معيشةً تكفّك فاقنع بها، وانفردْ في خلوةٍ عن الخلق مهما قدَرْتَ، وإنْ تزوَّجت فبفقيرةٍ تقنعُ باليسير، وتصبرُ أنت على صورتها وفَقْرِها، ولا تترك نفسَك تطمح إلى مَنْ تحتاج إلى فضل نفقة.

فإن رُزِقْتَ امرأةً صالحةً جمعت همَّك فذاك، وإن لم تقدر فمعالجةُ الصَّبر أصلحُ لك من المخاطرة، وإيَّاك والمستحسنات، فإنَّ صاحبهنَّ إذا سلم كعابدِ صنم، وإذا حصل بيدك شيء فأنفق بعضَه، فبحفظ الباقي تحفظ شتاتَ قلبك.

واحذرْ كلَّ الحَذَر من هذا الزمان وأهله، فما بقي مواسٍ ولا مؤثر، ولا مَنْ

(١) المُنَمِّس: هو المفسد والمدلس والملبِّس.

يهتمُّ لسدِّ خَلَّة، ولا مَنْ لو سُئِل أعطى، إلَّا أن يعطيَ نَزْراً بتضجُّرٍ ومِنَّةٍ يستعبدُ بها المعطي بقية العُمْر، ويستثقله كلَّما رآه، ويستدعي خدمتَه له، ويتردَّدُ إليه.

وإنَّما كان في الزمان مثل أبي عمرو بن نجيد سمعَ أبا عثمان الحيري يقول يوماً على المنبر: عليَّ ألف دينار، وقد ضاق صدري، فمضى أبو عمرو إليه في الليل بألف دينار، وقال: اقضِ دَينَك. فلما عاد وصعد المنبر قال: نشكر الله لأبي عمرو، فإنَّه أراحَ قلبي، وقضى ديني. فقام أبو عمرو، فقال: أيُّها الشيخ ذلك المالُ كان لوالدتي، وقد شَقَّ عليها ما فعلت، فإنْ رأيت أن تتقدَّم بردِّه فافعل، فلما كان في الليل عاد إليه، وقال له: لماذا شهرتني بين الناس، فأنا ما فعلتُ ذلك لأجل الخلق، فخُذْه، ولا تذكرني:

ماتوا وغُيِّبَ في الترابِ شخوصُهم والنشرُ مسكٌ والعظامُ رميمُ

فالبعدَ البعدَ عمَّن همَّتُه الدنيا، فإنَّ زادهم اليوم إلى أن يحصلَ أقربُ منه إلى أن يُؤثر، ولا تكاد ترى إلَّا عدوّاً في الباطن، صديقاً في الظاهر، شامتاً بباطنه، حسوداً على نعمته، فاشترِ العزلةَ بما بيعت، فإنَّ مَنْ له قلب إذا مشى في الأسواق وعاد منزله تغيَّر قلبُه، فكيف إن عرقله بالميل إلى أسباب الدُّنيا، واجتهد في جمع الهمِّ بالبعد عن الخلق، ليخلوَ القلب بالتفكُّر في المآبِ، وتتلمح عينُ البصيرة خِيَمَ الرَّحيل.

العلائق كثيرة والعمر قصير

الآدميُّ موضوعٌ على مطلوبات تُشتِّتُ الهمَّ: العينُ تطلب المنظور، واللسانُ يطلب الكلام، والبطنُ يطلب المأكول، والفرجُ المنكوحَ، والطَّبعُ يحبُّ جمع المال.

وقد أُمرنا بجمع الهَمِّ لذكر الآخرة، والهوى يُشتِّتُه، فكيف إذا اجتمعت إليه حاجاتٌ لازمةٌ مِنْ طلب قوتِ البدن، وقوت العيال؟

وهذا يبكِّر في دُكَّانه، ويفتكر في التحصيل، ويستعملُ آلة الفهم في نيل ما لا بدَّ منه، فأيُّ همٍّ يجتمع منه خصوصاً إنْ أخذه الشَّرَهُ في ثورة فيمضي العُمْرُ، فينهض

من الدُّكان إلى القبر. فكيف يُحصِّل العلم، أو العمل، أو إخلاص القصد، أو طلب الفضائل؟

فمن رُزق يقظةً فينبغي أن يصابرَ لنيل الفضائل، فإن كان متزهِّداً بغير عائلة، فقد كان السبتيُّ يعمل يومَ السبت، فيكتفي به طولَ الأسبوع، فإن كان له مال باضعَ به مَنْ يكفيه بدينه، وثقته أن يهتمَّ هو، وإن كان له عائلة جَمَعَ هَمَّه في نية الكسب عليهم، فيكون متعبِّداً، أو أن يكون قُنْية مال كعقار، ناصفه في نفقته ليكفيه دخله، وليقلل الهمَّ على مقدارِ ما يمكنه من حذف العلائقِ جهدَه، ليجمع الهمَّ في ذكر الآخرة، فإن لم يفعل أُخِذ في غفلته، وندم في حُفرته.

وأقبحُ الأحوال حالُ عالم فقيه، كلَّما جمع همَّه لذكر الآخرة، شتَّته طلبُ القوت للعائلة، وربَّما احتاج إلى التعرُّض بالظَّلَمة، وأَخْذ الشبهات، وبَذْل الوجه، فيلزم هذا التقدير في النفقة، وإذا حصل له شيء من وجهٍ دبَّر فيه، ولا ينبغي أن يحمله قِصَرُ الأمل على إخراج ما في يده، فقد قال ﷺ: «لأَنْ تتركَ ورثتك أغنياء خيرٌ من تركهم عالَةً يتكفَّفون النَّاسَ»(١).

وأذلُّ من كلِّ ذُلِّ التعرُّض للبخلاء والأمراء، فليدبر أمرَه، ويقلل العلائق، ويحفظْ جاهه، فالأيامُ قلائلُ.

وقد بُعث إلى أحمد بن حنبل مالٌ، فسأله ابنُهُ قبولَه، فقال: يا صالح صُنِّي، ثم قال: أستخير الله، فأصبح، فقال: يا بنيَّ قد عزم لي ألَّا أقبله. هذا وكان العطاء هنياً، وجاء من وجوهٍ، فانعكس الأمر اليوم.

طلب العلم وطلب الدُّنيا

رأيتُ جماعةً ممن أفنى أوائلَ عمره وريعان شبابه في طلبِ العلم يصبر على أنواع الأذى، وهَجْرِ فنون الراحاتِ أنفةً من الجهل ورذيلته، وطلباً للعلم وفضيلته، فلما نالَ منه طرفاً رَفَعه عن مراتب أرباب الدُّنيا ومَنْ لا علم له إلَّا بالعاجل، ضاق

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٤٢)، وصحيح مسلم (١٦٢٨).

به معاشه، فسافر البلاد يطلبُ من الأرذال، ويتواضع للسَّفَلةِ وأهلِ الدناءةِ والمُكَّاسِ وغيرهم.

فخاطبتُ بعضهم وقلت: ويحكَ! أين تلكَ الأنفةُ من الجهلِ التي سهرت لأجلها، وأظمأت نهارك بسببها؟ فلما ارتفعْتَ وانتفعْتَ عُدْتَ إلى أسفل سافلين، أفما بقي عندك ذَرَّةٌ من الأنفة تَنْبو به عن مقامات الأرذال؟ ولا معك يسيرٌ من العلم يسيرُ بك عن مناخ الهوى؟ ولا حصلت بالعلم قوةٌ تجذب بها زمامَ النفس عن مراعي السُّوء، غير أنَّه يبين لي أنَّ سهرَك وتعبَك كأنَّه كان لنيل الدُّنيا.

ثم إنِّي أَراكَ تزعُم أنَّك تريد شيئاً من الدُّنيا تستعينُ به على طلب العلم، فاعلمْ أنَّ التفاتَك إلى نوع كسبٍ تستغني به عن الأراذل أفضلُ من التزيُّد في علمك، فلو عرفت ما ينقُص به لم ترَ ما قد عزمت عليه زيادة مما يحتوي عليه هذا العزم: السفر الذي كلُّه مخاطرةٌ بالنفس، وبذل الوجه الذي طالما صِيْنَ لمن لا يصلُح التفات مثلك إلى مثله، وبعيدٌ أن تقنع بعدَ شروعك في هذا الأمر بقَدْرِ الكفاف، وقد علمت ما في السؤال بعد الكفاف من الإثم، وأبعدُ منه أن تقدِر على الورع في المأخوذ، ومَنْ لكَ بالسَّلامة والرجوع إلى الوطن، وكم رمى فقرٌ في بواديه من هالك.

ثم ما يحصِّلُه يفنى، ويبقى منه ما أعطى، وعيبُ المتَّقين إيَّاك، واقتداءُ الجاهلين بك، ويكفيك أنَّك عُدْتَ على ما علِمت من ذمِّ الدُّنيا بشَيْنِهِ، إذ فعلتَ ما يُناقِضه، خصوصاً وقد مرَّ أكثر العمر، ومن أحْسَنَ فيما مضى يُحْسِن فيما بقي.

صاحب العلم وشكوى التكاليف

قلت يوماً في مجلسي: لو أنَّ الجبالَ حملَتْ ما حملتُ لعجزتْ، فلما عدتُ إلى منزلي، قالت ليَ النَّفسُ: كيف قلتَ هذا؟! وربما أُوهِمَ النَّاسُ أنَّ بك بلاءً، وأنت في عافيةٍ في نفسك وأهلك! وهل الذي حَملتَ إلَّا التكليفُ الذي يحمله الخلق كلهم؟ فما وجهُ هذه الشكوى؟

فأجبتها: إنَّني لما عجِزت عمَّا حملتُ قلتُ هذه الكلمة لا على سبيل الشكوى،

ولكن للاستروواح، وقد قال كثيرٌ من الصحابة والتابعين قبلي: ليتَنا لم نُخلق! وما ذاك إلَّا لأثقالٍ عَجِزوا عنها.

ثم مَنْ ظَنَّ أنَّ التكاليف سهلةٌ فما عرفها، أتُرى يظنُّ الظانُّ أنَّ التكليف غسلُ الأعضاء برطلٍ من الماء، أو الوقوفُ في محرابٍ لأداء ركعتين؟ هيهات! هذا أسهلُ التكليف، وإنَّ التكليفَ هو الذي عجزتْ عنه الجبالُ، ومن جملته: أنَّني إذا رأيت القَدرَ يجري بما لا يفهمه العقلُ، ألزمتُ العقلَ الإذعان للمقدَّر، فكان من أصعب التكاليف، وخصوصاً فيما لا يعلم العقلُ معناه كإيلام الأطفال، وذبح الحيوان، مع الاعتقاد بأنَّ المقدِّرَ لذلك والآمرَ به أرحم الراحمين، فهذا مما يتحيَّر العقلُ فيه، فيكونُ تكليفُهُ التسليم وتركُ الاعتراض.

فكم بين تكليفِ البدن وتكليفِ العقل! ولو شرحت هذا لطالَ، غير أنِّي أعتذِر عمَّا قلته، فأقول عن نفسي وما يلزمني حالُ غيري.

إنَّني رجلٌ حُبِّبَ إليَّ العلمُ من زمن الطفولة، فتشاغلتُ به، ثم لم يُحبَّبْ إليَّ فنٌّ واحدٌ منه بل فنونه، ثم لا تقتصر همَّتي في فنٍّ على بعضه، بل أَرومُ استقصاءَه، والزمانُ لا يسع، والعمر أضيق، والشوق يقوى، والعجز يظهر، فيبقى وقوفُ بعض المطلوبات حسرات.

ثم إنَّ العلم دلَّني على معرفة المعبود، وحثَّني على خدمته، ثم صاحت بي الأدلَّةُ عليه إليه، فوقفت بين يديه، فرأيته في نعتِهِ، وعرفته بصفاته، وعاينتُ بصيرتي من ألطافِهِ ما دعاني إلى الهَيَمَانِ في محبَّته، وحرَّكني إلى التخلِّي لخدمته، وصار يملُكني أمرٌ كالوَجْدِ كلَّما ذكرته، فعادت خلوتي في خدمتي له أحلى عندي من كلِّ حلاوة.

فكلما مِلتُ إلى الانقطاع عن الشواغل إلى الخلوة صاح بي العلمُ: أينَ تمضي؟ أتُعرض عني وأنا سبب معرفتك؟ فأقولُ له: إنَّما كنتَ دليلاً، وبعد الوصول يُستغنى عن الدليلِ، قال: هيهات! كلما زدت زادت معرفتُك بمحبوبك، وفهمت كيف القرب منه، ودليل هذا أنَّك تعلم غداً أنَّك اليوم في نقصان، أَوَ ما سمعته يقول لنبيِّه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ثم ألستَ تبغي القُربَ منه؟ فاشتغل بدلالة عباده عليه، فهي حالاتُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أما علمتَ أنَّهم

آثروا تعليمَ الخلق على خلوات التعبُّد؛ لعلمهم أنَّ ذلك آثرُ عند حبيبهم؟ أمَا قال الرسول ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه: «لأَنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلاً خيرٌ لكَ من حُمْرِ النَّعم»[١]؟.

فلمَّا فهمتُ صِدْقَ هذه المقالة تهوَّستُ على تلك الحالة، وكلَّما تشاغلتُ بجمع الناس تفرَّق همِّي، وإذا وجدتُ مرادي من نفعهم ضِعْتُ أنا، فأبقى في حيِّز التحيُّز متردِّداً، لا أدري على أيِّ القدمين أعتمدُ، فإذا وقفت متحيِّراً صاح العلم: قُمْ لكسب العيال، وادأبْ في تحصيل ولدٍ يذكر الله، فإذا شرعتَ في ذلك قلَص ضَرْعُ الدُّنيا وَقْت الحَلْب، ورأيتُ بابَ المعاش مسدوداً في وجهي؛ لأنَّ صناعة العلم شغلتني عن تعلمِ صناعة، فإذا التفت إلى أبناء الدنيا رأيتهم لا يبيعون شيئاً من سلعها إلا بدين المشتري، أو ليتَ مَنْ نافقهم أو راءاهم نال من دنياهم، بل ربما ذهبَ دينه ولم يحصل مراده.

فإن قال الضَّجرُ: اهرب، قال الشرعُ: «كفى بالمرءِ إثماً أن يضيِّع من يقوتُ»[٢].

وإن قال العزم: انفرد، قال: فكيف بمن تعولُ؟

فغاية الأمر أنَّني أشرعُ في التقلُّلِ من الدنيا، وقد رُبِّيتُ في نعيمها، وغُذِّيتُ بلِبانِها، ولطف مزاجي فوق لطفِ وضعه بالعادة، فإذا غيَّرت لباسي، وخشنت مطعمي؛ لأنَّ القوتَ لا يحتمل الانبساط نفرَ الطبعُ لفراق العادة، فحلَّ المرضُ فقطع عن واجبات، وأوقع فيَّ آفات، ومعلوم أنَّ لينَ اللقمةِ بعد التحصيلِ من الوجوه المستطابة، وتخشينَها لمن لم يألف سعيٌ في تلفِ النفس، فأقول: كيف أصنع؟ وما الذي أفعل؟

وأخلو بنفسي في خلواتي وأتزيَّد من البكاء على نقصِ حالاتي، أقول: أصف حالَ العلماء وجسمي يضعف عن إعادةِ العلم، وحالَ الزُّهَّاد وبدني لا يقوى على الزهد، وحالَ المحبين ومخالطةُ الخلق تُشتِّتُ همِّي، وتنتقشُ صورُ المحبوبات من الهوى في نفسي، فتصدأُ مرآةُ قلبي، وشجرةُ المحبة تحتاج إلى تربيةٍ في تربة طيِّبة، لتُسقى ماء الخلوة من دولاب الفكرة.

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٠٩).
(٢) أخرجه أحمد (٦٤٩٥)، وأبو داود (١٦٩٢)، وبنحوه مسلم (٩٩٦) من حديث ابن عمرو.

وإن آثرتُ التكسُّب لم أُطق، وإن تعرَّضت لأبناء الدنيا مع أنَّ طبعي الأَنَفَةُ من الذلّ، وتَدَيُّني يمنعني، فلا يبقى للميلِ مع هذين الجاذبين أثر، ومخالطة الخَلْق تؤذي النفسَ مع الأنفاس، فلا تحقيقُ التوبة أَقدرُ عليه، ولا نيلُ مرتبةٍ من علمٍ أو عملٍ أو محبَّةٍ يصحُّ لي، فإذاً رأيتني كما قال القائل:

ألقاهُ في اليمِّ مكتوفاً وقال له ... إيَّاكَ إيَّاكَ أن تبتلَّ بالماء

تحيَّرتُ في أمري، وبكيتُ على عمري، وأنادي في فلوات خلواتي بما سمعته من بعض العوام وكأنَّه وصف حالي:

واحسرتي كم أُداري فيك تعثيري ... مثل الأَسير بلا حبلٍ ولا سيري

ما حيلتي في الهوى قد ضاعَ تدبيري ... لما شكلتَ جناحي قلتَ لي: طيري

العلم والفقر

أعظمُ البلايا أن يعطيَك همَّةً عاليةً، ويمنَعك من العمل بمقتضاها، فيكون من تأثير همَّتك الأنفةُ من قبول إرْفاق الخلق استثقالاً لحمل مِنَنِهم، ثم يبتليك بالفقر فتأخذُ منهم، ويلطفُ مزاجك، فلا تقبلُ من المأكولات ما سهُل إحضارُه، فتحتاج إلى فضل نفقةٍ، ثم يقلِّل رزقَك ويعلِّقُ همَّتك بالمستحسنات، ويقطعُ بالفقر السبيل إليهنَّ، ويريك العلوم في مقامِ معشوق، ويضعفُ بدنك عن الإعادة، ويُخْلي يديك من المالِ الذي تحصِّل به الكتب، ويقوي تَوْقَك إلى درجات العارفين والزهَّاد، ويحوجك إلى مخالطةِ أرباب الدُّنيا، وهذا البلاءُ المبين.

وأمَّا الخسيس الهمّة الذي لا يستنكفُ من سؤال الخلق، ولا يرى الاستبدال بزوجته، ويكتفي بيسيرٍ من العلمِ، ولا يتوقُ إلى أحوال العارفين، فذاك لا يؤلمه فَقْدُ شيء، ويرى ما وجد هو الغاية، فهو يفرحُ فَرَحَ الأطفال بالزَّخارف، فما أهونَ الأمرَ عليه؛ إنَّما البلاءُ على العارف ذي الهمَّة العالية الذي تدعوه همَّتُهُ إلى جمع الأضداد للتزيُّد من مقام الكمالِ، وتقصير خطاه عن مدارك مقصوده، فيالَه من حالٍ ينفد في طريقه زادُ الصابرين!

ولولا حالاتُ غفلةٍ تعتري هذا المُبتلى يعيش بها، لكانَ دوامُ ملاحظته للمقامات يُعمِي بصره، واجتهادُهُ في السُّلوك يُحفي قدمَه، لكن ملاحظات الإمداد له تارةً ببلوغ بعض مراده، وتارةً بالغفلة عمَّا قصَدَ، وهذا كلامٌ عزيزٌ لا يفهمه إلَّا أربابُهُ، ولا يعلم كُنهَه إلَّا أصحابُه.

طلب العلم وعزّة النفس

رأيتُ جمهورَ العلماء يشغَلُهم طلبُهم للعلم في زمن الصِّبا عن المعاش، فيحتاجون إلى ما لا بدَّ منه، فلا يصلهم من بيت المال شيءٌ، ولا من صِلاتِ الإخوان ما يكفي، فيحتاجون إلى التعرُّض بالإذلال، فلم أرَ في ذلك من الحكمة إلَّا سببين:

أحدهما: قمعُ إعجابهم بهذا الإذلال. والثاني: نفعُ أولئك بثوابهم.

ثم أمعنْتُ الفكرَ، فتلمَّحتُ نكتةً لطيفةً، وهو أنَّ النفسَ الأَبيَّةَ إذا رأت حالَ الدُّنيا كذلك، لم تساكنها بالقلب، ونَبَتْ عنها بالعزم، ورأت أقربَ الأشياء شبهاً بها مزبلةً عليها الكلابُ، أو غائطاً يؤتى لضرورة، فإذا نزل الموتُ بالرحلة عن مثل هذه الدارِ، لم يكن للقلب بها متعلَّقٌ متمكن فتهونُ حينئذٍ.

منفعة المال للعلماء

ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جَمْعِ المال للاستغناء عن الناس، فإنَّه إذا ضُمَّ إلى العلم حِيزَ الكمال.

وإنَّ جمهورَ العلماء شغَلهم العلمُ عن الكسب، فاحتاجوا إلى ما لا بدَّ منه، وقلَّ الصبرُ، فدخلوا مداخلَ شانتهم وإن تأوَّلوا فيها، إلَّا أنَّ غيرها كان أحسن لهم.

فالزُّهري مع عبد الملك، وأبو عبيدة مع طاهر بن الحسين، وابنُ أبي الدنيا مؤدِّبُ المعتضِد، وابنُ قتيبة صدَّر كتابه بمدح الوزير.

وما زال خَلَفٌ من العلماء والزُّهَّاد يعيشون في ظلِّ جماعةٍ من المعروفين بالظُّلم، وهؤلاء وإن كانوا سلكوا طريقاً من التأويل، فإنَّهم فقدوا من قلوبهم، وكمال دينهم أكثر ممَّا نالوا من الدنيا.

وقد رأينا جماعةً من المتصوِّفة والعلماء يَغْشَون الولاةَ لأجل نَيْلِ ما في أيديهم، فمنهم من يُداهن ويُرائي، ومنهم مَنْ يمدح بما لا يجوز، ومنهم من يسكت عن منكر، إلى غير ذلك من المُدَاهنات وسببُها الفقر.

فعلمنا أنَّ كمالَ العزِّ وبُعْدَ الرِّياء إنَّما يكون في البعد عن العُمَّال الظَّلَمة، ولم نرَ مَنْ صَحَّ له هذا إلَّا في أحد رجلين:

إمَّا مَنْ كان له مالُهُ كسعيد بن المسيِّب كان يتَّجر في الزيتِ وغيره، وسفيان الثَّوري كانت له بضائع، وابن المبارك.

وإمَّا مَنْ كان شديدَ الصَّبر قنوعاً بما رُزِقَ وإن لم يكفه، كبِشْر الحافي، وأحمد بن حنبل.

ومتى لم يجد الإنسانُ كصبر هذين، ولا كمال أولئك، فالظاهرُ تقلُّبه في المِحَن والآفات، وربَّما تَلِفَ دينُهُ.

فعليك يا طالبَ العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس، فإنَّه يجمع لك دينكَ، فما رأينا في الأغلبِ منافقاً في التديُّن والتزهُّد والتخشُّع ولا آفةً طرأت على عالم إلَّا بحبِّ الدُّنيا، وغالب ذلك الفقر.

فإنْ كان له ما يكفيه، ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادةَ، فذلك معدودٌ في أهل الشَّره، خارجٌ عن حيِّز العلماء، نعوذُ بالله من تلك الأحوال!

الفصل السادس

في أدب المتعلمين

لذَّة العلم وترتيب أحوال المبتدئ بالتفقه

اللَّذَّاتُ كلُّها بين حسِّيٍّ وعقليٍّ، فنهايةُ اللَّذَّات الحسِّيَّة وأعلاها النكاحُ، وغايةُ اللَّذَّات العقلية العلمُ، فمَنْ حصلت له الغايتان في الدُّنيا، فقد نالَ النهاية، وأنا أُرشِدُ الطالبَ إلى أعلى المطلوبين، غير أنَّ للطالب المرزوق علامةً، وهو أن يكون مرزوقاً علوَّ الهمَّة، وهذه الهمَّةُ تولد مع الطفل، فتراه من زمن طفولته يطلب معاليَ الأمور.

كما يروى في الحديث: أنَّه كان لعبدِ المطلب مِفْرَشٌ في الحِجْر، فكان النَّبيُّ ﷺ يأتي وهو طفل، فيجلس عليه، فيقول عبد المطلب: إنَّ لابني هذا شأناً.

فإن قال قائلٌ: فإذا كانت لي همَّةٌ، ولم أُرزق ما أَطلب، فما الحيلة؟ فالجواب: أنَّه إذا امتنع الرزق من نوع، لم يمتنع من نوعٍ آخر، ثم من البعيد أنْ يرزقَكَ همَّةً ولا يُعينك، فانظر إلى حالك، فلعلَّه أعطاك شيئاً ما شكرته، أو ابتلاكَ بشيءٍ من الهوى ما صبَرْتَ عنه.

واعلم أنَّه ربَّما زوى عنك من لذَّاتِ الدُّنيا كثيراً ليؤثرك على لذَّات العلم، فإنَّك ضعيفٌ ربَّما لا تقوى على الجَمْع، فهو أعلمُ بما يُصلِحُك.

وأمَّا ما أردتُ شرحه لك، فإنَّ الشاب المبتدئ في طلبِ العلم ينبغي له أن يأخذ من كلِّ علمٍ طرفاً، ويجعل علم الفقه الأهمَّ، ولا يقصِّر في معرفة النَّقل، ففيه

تبين سير الكاملين، وإذا رُزِق فصاحةً من حيث الوضع، ثم أضيف إليها معرفةُ اللغة والنَّحو، فقد شُحِذت شفرةُ لسانِهِ على أجود مِسَن.

ومتى أدَّى العلمُ لمعرفة الحق وخدمة الله عزَّ وجل، فتحت له أبوابٌ لا تُفْتَح لغيره، وينبغي له بالتلطُّف أن يجعل جزءاً مِنْ زمانه مصروفاً إلى توفير الاكتساب والتجارة، مستنيباً فيها غير مباشر لها، مع التدبير في العيش الممتنع من الإسراف والتبذير، فإنَّ رواية العلم والعمل به إلى درجةِ المعرفة لله عزَّ وجل آسرةٌ للمشاعر، فربَّما شغلته لذَّةُ ما وصلَ إليه عن كلِّ شيءٍ، ويا لها حالةً سليمةً من آفة!

علوم الفقيه

للفقيه أن يطالعَ من كل فنٍّ طرفاً من تاريخ، وحديثٍ، ولغةٍ، وغير ذلك، فإنَّ الفقه يحتاج إلى جميع العلوم، فليأخذ من كلِّ شيء منها مهمّاً.

ولقد رأيت بعضَ الفقهاء يقول: اجتمعَ الشِّبلي وشريكٌ القاضي. فاستعجبتُ له كيف لا يدري بُعْد ما بينهما.

وقال آخر في مناظرة: كانت الزوجية بين فاطمة وعلي رضي الله عنهما غير منقطعة الحكم، فلهذا غسَّلها. فقلت له: ويحك! فقد تزوَّج أُمامة بنتَ زينب، وهي بنتُ أختها، فانقطع.

فينبغي لكل ذي علم أن يساهم بباقي العلوم، فيطالع منها طرفاً؛ إذ لكل علم بعلم تعلُّق، وما أقبح بمحدِّثٍ يُسأل عن حادثةٍ فلا يدري، وقد شغله منها جمع طرق الأحاديث، وقبيحٌ بالفقيه أن يقال له: ما معنى قول رسول الله ﷺ كذا؟ فلا يدري صحةَ الحديث، ولا معناه.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ همَّةً عاليةً لا ترضى بالنقائص بمنِّهِ ولطفه!

الفقه أفضل العلوم

أعظمُ دليل على فضيلة الشيء النظرُ إلى ثمرته، ومَنْ تأمَّل ثمرةَ الفقه علمَ أنَّه أفضل العلوم، فإنَّ أربابَ المذاهب فاقوا بالفقه على الخلائق أبداً، وإن كان في

زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن، أو بالحديث، أو باللغة.

واعتبرْ هذا بأهل زماننا، فإنَّك ترى الشابَّ يعرفُ مسائلَ الخلاف الظاهرة، فيستغني، ويعرفُ حكم الله تعالى في الحوادث ما لا يعرفه النِّحريرُ من باقي العلماء.

وكم رأينا مبرِّزاً في علم القرآن، أو في الحديث، أو في التفسير، أو في اللغة، لا يعرف مع الشيخوخة مُعْظَمَ أحكامِ الشرع، وربَّما جَهِلَ علمَ ما ينويه في صلاته، على أنَّه ينبغي للفقيه ألَّا يكون أجنبيّاً عن باقي العلوم، فإنَّه لا يكون فقيهاً، بل يأخذُ من كل علمٍ بحظٍّ، ثم يتوفر على الفقهِ، فإنَّهُ عِزُّ الدُّنيا والآخرة.

طالب العلم يأخذ من كل علمٍ طرفاً

قد ثبتَ بالدليل شرفُ العلم وفضلُه، إلَّا أنَّ طلابَ العلم افترقوا، فكلٌّ تدعوه نفسه إلى شيء، فمنهم مَنْ أذهب عُمرَه في القراءات، وذاك تفريط في العُمر؛ لأنَّه إنَّما ينبغي أن يعتمدَ على المشهور منها لا على الشاذ، وما أقبحَ بالقارئ أن يُسأل عن مسألةٍ في الفقه ولا يدري، وليس ما شغله عن ذلك إلَّا كثرةُ الطُّرق في روايات القراءات، ومنهم من يتشاغل بالنحو وعلله فحسب، ومنهم من يتشاغل باللغة فحسب، ومنهم من يكتب الحديث ويكثر، ولا ينظر في فهم ما كتب.

وقد رأينا في مشايخنا المحدِّثين مَن كان يسأل عن مسألةٍ في الصلاة فلا يدري ما يقول، وكذلك القُرَّاء، وكذلك أهل اللغة والنحو.

وحدَّثني عبد الرحمن بن عيسى الفقيه، قال: حدثني ابن المنصوري، قال: حضرنا مع أبي محمد بن الخشَّاب، وكان إمامَ الناسِ في النحو واللغة، فتذاكروا الفقهَ، فقال: سلوني عمَّا شئتم، فقال له رجلٌ: إن قيل لنا: رفعُ اليدين في الصَّلاة ما هو؟ فماذا تقول: فقال: هو ركن، فدهشت الجماعة من قلَّةِ فِقْهه.

وإنَّما ينبغي أن يأخذَ من كلِّ علمٍ طرفاً، ثم يهتمَّ بالفقه، ثم ينظرَ في مقصودِ العلوم، وهو المعاملةُ لله سبحانه، والمعرفة به، والحبُّ له، وما أَبْلَه من يقطع عمره في معرفة علمِ النجوم! وإنَّما ينبغي أن يعرف من ذلك التسيير والمنازل لعلم الأوقات.

وينبغي لطالب العلم أن يصحِّحَ قَصْده؛ إذ فقدُ الإخلاص يمنع قبولَ الأعمال.

وليجتهدْ في مجالسة العلماء، والنظر في الأقوال المختلفة، وتحصيل الكتب، فلا يخلو كتابٌ من فائدة، وليجعل همَّته للحفظ، ولا ينظر ولا يكتبْ إلَّا وقت التَّعب من الحفظ.

وليحذرْ صحبة السُّلطان، ولينظرْ في منهاج الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، وليجتهدْ في رياضة نفسِهِ والعمل بعلمه، ومَنْ تولَّاه الحقُّ وفَّقَه.

جمع الكتب والتدرج في أخذ العلم

رأيت الشَّره في تحصيل الأشياء يفوِّت الشَّرِهُ مقصودَه، وقد رأينا مَنْ كان شرِهاً في جمع المال، فحصَلَ له الكثيرُ منه، وهو حريصٌ على الازدياد، ولو فهم علم أنَّ المراد من المال إنفاقُه في العمر. فإذا أُنفِقَ العُمرُ في تحصيله فات المقصودان جميعاً، وكم رأينا مِمَّن جمع المال ولم يتمتَّعْ به، فأبقاه لغيره، وأفنى نفسه، كما قال الشاعر:

كدودة القَزِّ ما تبنيه يهدمُها وغيرُها بالذي تبنيه ينتفِعُ

وكذلك رأينا خلقاً كثيراً يحرصونَ على جمع الكتب، فينفقون أعمارَهم في كتابتها، وكدأب أهل الحديث ينفقون الأعمار في النَّسخ والسماع إلى آخر العمر، ثم ينقسمون: فمنهم مَنْ يتشاغل بالحديث وعلمه وتصحيحه، ولعلَّه لا يفهم جواب حادثة، ولعلَّه عنده لحديث: «أسلم سالمها الله»(1) مئةُ طريق. وقد حُكِيَ لي عن بعض أصحاب الحديث أنَّه سمع «جُزْءَ ابن عرفة» عن مئة شيخ، وأنَّ عنده سبعين نسخةً.

ومنهم مَنْ يجمع الكتب ويسمعها، ولا يدري ما فيها، لا مِنْ حيث صحَّتها، ولا مِنْ فهم معناها، فتراه يقول: الكتابُ الفلانيُّ سماعي، وعندي به نسخةٌ، والكتاب الفلانيُّ والفلاني، فلا يعرف علم ما عنده من حيث فهمُ صحيحه من سقيمه، وقد صدَّ اشتغاله بذلك عن المهمِّ من العلم، فهم كما قال الحطيئةُ:

---

(1) صحيح البخاري (١٠٠٦).

زوامِلُ للأخبارِ لا عِلْمَ عندها   بِمُثْقِلِها إلا كعلم الأباعرِ
لعمركَ ما يدري البعيرُ إذا غدا   بأوساقِهِ أوْ رَاحَ ما في الغرائرِ

ثم ترى منهم مَنْ يتصدَّر ويفتقرُ الزمان إلى تصدره للرواية، فيمدُّ يده إلى ما ليس من شُغْله، فإنْ أفتى أخطأ، وإن تكلَّمَ في الأصول خَلَّط، ولولا أنِّي لا أحبُّ ذكرَ الناس لذكرت مِنْ أخبار كبار علمائهم وما خلَّطوا ما يعتبر به، ولكنَّه لا يخفى على المحقِّق حالُهم، فإنْ قال قائل: أليس في الحديث: «منهومان لا يشبعان، طالبُ علمٍ، وطالبُ دنيا»[(١)].

قلت: أمَّا العالمُ، فلا أقولُ له: اشبَعْ من العلم، ولا: اقْتَصر على بعضِه، بل أقولُ له: قدِّم المهمَّ، فإنَّ العاقلَ من قَدَّر عمره، وعمل بمقتضاه، وإنْ كان لا سبيل إلى العلم بمقدار العُمْر، غير أنَّه يبني على الأغلب، فإن وصل فقد أعدَّ لكلِّ مرحلة زاداً، وإنْ مات قبلَ الوصول فحسبُه ذلك، فإذا علم العاقل أنَّ العُمرَ قصير، وأنَّ العلمَ كثير، فقبيح بالعاقل الطالب لكمال الفضائل أن يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه ليُحَصِّل كلَّ طريق، وكلَّ رواية، وكلَّ غريب، وهذا لا يفرَغُ من مقصوده منه في خمسين سنة خصوصاً إن تشاغل بالنَّسخ، ثم لا يحفظ القرآن، أو يتشاغل بعلوم القرآن ولا يعرفُ الحديث، أو بالخلاف في الفقهِ ولا يعرف النَّقل الذي عليه مدار المسألة.

فإن قال قائلٌ: فدبِّرْ لي ما تختارُ لنفسك، فأقولُ: ذو الهمَّة لا يخفى من زمان الصِّبا كما قال سفيان بن عيينة، قال لي أبي، وقد بلغتُ خمْسَ عشْرةَ سنة: إنَّه قد انقضت عنك شرائعُ الصبا، فاتبع الخير تكنْ من أهله، فجعلت وصية أبي قِبْلَةً أميلُ إليها، ولا أميلُ عنها.

ثم قبلَ شروعي في الجواب أقول: ينبغي لمن له أَنفةٌ أن يأنفَ من التَّقصير الممكن دفعُه عن النفس، فلو كانت النبوَّة مثلاً تأتي بكسْبٍ لم يجُزْ له أن يقنع

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٧٩٨)، والحاكم ١/٩٢، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١٣) من حديث أنس مرفوعاً. وإسناده ضعيف.
وأخرجه ابن الجوزي في «العلل» (١١١) من حديث ابن عباس مرفوعاً، وقال: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ.

بالولاية، أو تصور أن يكون مثلاً خليفة لم يحسنُ به أن يقتنع بإمارةٍ، ولو صحَّ له أن يكون مَلَكاً لم يرضَ أن يكون بشراً.

والمقصودُ أن ينتهي بالنفس إلى كمالها الممكِن لها في العلم والعمل، وقد علم قِصَرَ العُمْرِ وكثرةَ العلم، فيبتدئ بالقرآن وحفظه، وينظر في تفسيره نظراً متوسطاً لا يخفى عليه بذلك منهُ شيء، وإن صحَّ له قراءةُ القراءات السبع، وأشياء من النَّحو، وكتب اللغة، وابتدأ بأصول الحديث من حيثُ النَّقل كالصِّحاح والمسانيد والسنن، ومن حيثُ عِلْمُ الحديث، كمعرفةِ الضعفاءِ والأسماء، فلينظرْ في أصول ذلك، وقد رتبت العلماءُ من ذلك ما يستغني به الطالبُ عن التَّعب، ولينظرْ في التواريخ ليعرفَ ما لا يستغني عنه، كنسب الرسول ﷺ، وأقاربه، وأزواجه، وما جرى له، ثم لِيُقْبِلْ على الفقهِ، فلينظرْ في المذهب والخلاف، وليكن اعتمادُهُ على مسائل الخلاف، فلينظر في المسألة وما تحتوي عليه، فيطلبه من مظانه، كتفسيرِ آيةٍ، وحديثٍ، وكلمة لغة، ويتشاغل بأصول الفقه وبالفرائض.

وليعلمْ أنَّ الفقهَ عليه مدارُ العلوم، ويكفيه من النَّظر في الأصول ما يستدلُّ به على وجود الصانع، فإذا أثبته بالدليل، وعرف ما يجوزُ عليه مما لا يجوز، وأثبت إرسال الرُّسل، وعلم وجوب القبولِ منهم، فقد احتوى على المقصود من علم الأصول، فإن اتَّسَعَ الزمان للتزيُّد من العلم، فليكنْ من الفقه، فإنَّه الأنفعُ، ومهما فُسح له في المَهْل، فأمكنه تصنيفٌ في علم، فإنَّه يخلفُ بذلك خَلْفَهُ خَلَفاً صالحاً، مع اجتهاده في التسبُّبِ إلى اتخاذ الولد.

ثم يعلمُ أنَّ الدنيا مَعْبَرةٌ، فيلتفت إلى فهم معاملةِ الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ مجموع ما حصَّله من العلم يدلُّه عليه، فإذا تعرَّض لتحقيق معرفته، ووقف على باب معاملته، فقلَّ أن يقف صادق إلَّا ويُجذب إلى مقام الولاية، ومَنْ أريد وفِّق.

وإنَّ لله عزَّ وجلَّ أقواماً يتولَّى تربيتهم، ويبعثُ إليهم في زمن الطفولة مؤدباً، ويسمى العقل، ومقوماً ويقال له: الفهم، ويتولَّى تأديبهم وتثقيفهم، ويهيئُ لهم أسباب القُربِ منه، فإنْ لاحَ قاطعٌ قطعهم عنه، وإن تعرَّضت بهم فتنة دفعها عنهم، فنسألُ الله عزَّ وجلَّ أن يجعلنا منهم، ونعوذُ به من خِذْلانٍ لا ينفعُ معه اجتهاد.

العمر قصير وطالب العلم يراعي المهم من كل علم

اعلم أنَّه لو اتَّسع العُمُرُ لم أمنع من الإيغال في كلِّ علمٍ إلى منتهاه، غير أنَّ العُمُرَ قصير، والعلمَ كثير، فينبغي للإنسان أن يقتصر من القراءات إذا حفظ القرآن على العشرةِ، ومن الحديث على الصِّحاح والسنن والمسانيد المصنّفة، فإنَّ علوم الحديث قد انبسطت زائدةً في الحدِّ، وما في هذا الجزء، والمتون محصورة وإنَّما الطرقُ تختلف. وعلمُ الحديث يتعلَّق بعضُهُ ببعض، وهو مشتهى، والفقهاء يسمُّونه: علم الكسالى؛ لأنَّهم يتشاغلون بكتابته وسماعه، ولا يكادون يعانون حفظه، ويفوتهم المهمُّ وهو الفقه.

وقد كان المحدِّثون قديماً همُ الفقهاء، ثم صار الفقهاء لا يعرفون الحديثَ، والمحدثون لا يعرفونَ الفقهَ.

فمن كان ذا همَّة، ونصح نفسَه تشاغل بالمهمِّ من كل علم، وجعل جلَّ شُغْله الفقه، فهو أعظم العلوم وأهمها. وقد قال أبو زُرعة: كتب إليَّ أبو ثور: فإنَّ هذا الحديث قد رواه ثمانية وتسعون رجلاً عن رسول الله ﷺ. والذي صحَّ منه طرقٌ يسيرة، فالتشاغل بغير ما صحَّ يمنع التشاغل بما هو أهمُّ، ولو اتسع العمر كان استيفاء كل الطرق في كل الأحاديث في غاية الجودة لكن العمر قصير، ولما تشاغل بالطرق مثل يحيى بن معين فاته من الفقهِ كثير، حتى إنَّه سُئِلَ عن الحائض، أيجوز أن تغسل الموتى؟ فلم يعلم، حتى جاء أبو ثور فقال: يجوز؛ لأنَّ عائشة رضي الله عنها قالت: كنتُ أُرجِّلُ رأسَ رسول الله ﷺ وأنا حائض. فيحيى أعلمُ بالحديث منه، ولكن لم يتشاغل بفهمه، فأنا أنهى أهل الحديث أن يشغلَهم كثرةُ الطرق.

ومن أقبح الأشياء أن تجريَ حادثةٌ يُسأَلُ عنها شيخٌ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكمَ الله عزَّ وجلَّ فيها.

وكذلك أنهى مَنْ يتشاغل بالتزهُّد والانقطاع عن الناس أن يُعرِض عن العلم، بل ينبغي أن يجعل لنفسه منه حظاً؛ ليعلم إنْ زلَّ كيف يتخلَّص.

على طالب العلم صرف همَّته إلى الحفظ والإعادة

ينبغي لطالب العلم أن يكون جُلُّ همَّته مصروفاً إلى الحفظ والإعادة، فلو صحَّ صرفُ الزَّمان إلى ذلك كان الأولى، غير أنَّ البدنَ مطيَّة، وإعدادَ السير مظنّةُ الانقطاع، ولما كانت القوى تَكِلُّ فتحتاجُ إلى تجديد، وكان النَّسخُ والمطالعة والتصنيف لا بدَّ منه، مع أنَّ المهمَّ الحِفْظُ، وجب تقسيم الزمانِ على الأمرين، فيكون الحِفْظُ في طرفي النَّهار، وطرفي الليل، ويوزع الباقي بين عمل بالنَّسخ والمطالعة، وبين راحةٍ للبدن وأَخْذ لحظَه.

ولا ينبغي أن يقعَ الغَبْنُ بين الشُّركاء، فإنَّه متى أخذ أحدُهم فوق حقِّه أثَّر الغبن وبان أثرُه، وإنَّ النَّفسَ لتهربُ إلى النَّسخ والمطالعةِ والتصنيف عن الإعادة والتكرار؛ لأنَّ ذلك أشهى وأخفُّ عليها، فليحذر الرَّاكب من إهمال الناقة، ولا يجوزُ له أن يحمل عليها ما لا تطيق، ومع العدل والإنصاف يتأتَّى كلُّ مراد، ومَن انحرفَ عن الجادة طالتْ طريقه،ومَنْ طوى منازل في منزل أَوْشك أن يفوتَه ما جَدَّ لأجلِهِ. على أنَّ الإنسان إلى التحريض أحوجُ؛ لأنَّ الفتور أولى من الجِدِّ.

وبعد: فاللازمُ في العلم طلبُ المهمِّ، فربَّ صاحبِ حديثٍ حفظ مثلاً لحديث: «من أتى الجمعة فليغتسل» عشرين طريقاً، والحديثُ قد ثبتَ من طريقٍ واحدٍ، فشغَله ذلك عن معرفة آداب الغسل، والعُمُر أقصرُ وأنفَسُ من أن يُفرَّط منه في نَفَس، وكفى بالعقل مرشداً إلى الصَّواب مَنْ عضده التوفيق.

وقت تعليم الصبيان

ينبغي أن يُحْملَ الصبيُّ مِنْ حين يبلغ خمس سنين على التشاغل بالقرآن، والفقه، وسماعِ الحديث، وليُحصَّل له المحفوظات أكثر من المسموعات؛ لأنَّ زمانَ الحفظ إلى خمس عشرة سنة، فإذا بلغ تشتتْ همَّته، فليُضرب تارةً، ويرشى أخرى، ليبلغَ وقد حصَّل محفوظات سنيَّة.

وأول ما ينبغي أن يكلَّف حفظ القرآن متقناً، فإنَّه يثبتُ ويختلط باللَّحم والدم، ثمَّ مقدمة من النَّحو يعرف بها اللحن، ثم الفقه مذهباً وخلافاً، وما أمكن بعد هذا من العلوم فحفظُهُ حسن، وليحذر من عادات أصحاب الحديث، فإنَّهم يفنون الزمان في سماع الأجزاء التي تتكرر فيها الأحاديث، فيذهب العمر وما حصلوا فهمَ شيء، فإذا بلغوا سناً طلبوا جواز فتوى، أو قراءة جزءٍ من القرآن، فعادوا القَهقَرى، يحفظون بعد كِبَرِ السنِّ فلا يحصل مقصودُهم.

فالحفظ في الصِّبا للمهمِّ من العلم أصلٌ عظيم، وقد رأينا كثيراً ممَّن تشاغل بالمسموعات وكتابة الأجزاء ورأى الحفظ صعباً، فمال إلى الأسهل، فمضى عُمُرُه في ذلك، فلما احتاج إلى نفسه قعد يحفظ على كِبَرٍ، فلم يحصل مقصودُه، فاليقظة لفهم ما ذكرت، وانظر في الإخلاص، فما ينفع شيءٌ دونه.

طريقة الحفظ

ما رأيت أصعبَ على النفس من الحفظ للعلم والتَّكْرار، وخصوصاً تكرار ما ليس لها في تكراره وحفظه حظٌّ، مثل مسائل الفقه، بخلاف الشِّعر والسَّجع، فإنَّ لها لذَّةً في إعادته وإن كان يصعُبُ؛ لأنَّها تلتذُّ به مرةً ومرتين، فإذا زاد التَّكرار صعُب عليها، ولكن دون صعوبةِ الفقه وغيره من المستحسنات عند الطبع، فتراها تخلدُ إلى الحديث، والشِّعر، والتصانيف، والنَّسخ؛ لأنَّه يمرُّ بها كلَّ لحظة ما لم تره، فهو في المعنى كالماء الجاري؛ لأنَّه جزءٌ بعد جزء، وكذا من ينسخ ما يحبُّ أن يسمعه، أو يصنِّف، فإنَّه يلتذُّ بالجِدَّة، ويستريح من تعب الإعادة، إلَّا أنَّه ينبغي للعاقل أن يكون جلُّ زمانه للإعادة، خصوصاً الصَّبيُّ والشابُّ، فإنَّه يستقرُّ المحفوظُ عندهما استقراراً لا يزول، ويجعل أوقات التَّعب من الإعادة للنَّسخ، ويحذر من تفلتِها إلى النسخ عن الإعادة فيقهرها، فإنَّه يحمد ذلك حمدَ السُّرى وقت الصباح، وسيندمُ مَن لم يحفظ نَدَمَ الكُسَعِيِّ وقتَ الحاجةِ إلى النظرِ والفتوى.

وفي الحفظ نكتةٌ ينبغي أن تلحظَ، وهي أنَّ الفقيهَ يحفظ الدرس ويعيده، ثم يتركه فينساه، فيحتاج إلى زمان آخر لحفظه، فينبغي أن يحكم الحفظ، ويكثر التكرار؛ ليثبت قاعدة الحفظ.

أوقات الحفظ ومقداره وترتيب أولوياته

اعلم أنَّ المتعلمَ يفتقر إلى دوام الدراسة، ومن الغلطِ الانهماكُ على الإعادة ليلاً ونهاراً؛ فإنَّه لا يلبثُ صاحبُ هذه الحال إلَّا أياماً، ثم يفترُ أو يمرَض.

وقد روينا أنَّ الطبيبَ دخل على أبي بكر بن الأنباري في مرض موتِهِ فنظر إلى مائه وقال: قد كنت تفعل شيئاً لا يفعله أحدٌ، ثمَّ خرج، فقال: ما يجيء منه شيءٌ، فقيل له: ما الذي كنت تفعل؟ قال: كنتُ أعيدُ كلَّ أسبوع عَشْرَةَ آلاف ورقة.

ومن الغلطِ حفظُ الكثير، أو الحفظُ من فتورٍ؛ فإنَّ القلب جارحةٌ من الجوارح، وكما أنَّ من الناس مَنْ يحمل المئة رطل، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلاً، فكذلك القلوبُ، فليأخذ الإنسان على قدْرِ قوَّته ودونها، فإنَّه إذا استنفذها في وقتٍ ضاعت منه أوقات، كما أنَّ الشَّرِه يأكلُ فَضْلَ لُقيمات، فيكون سبباً إلى منع أكلات.

والصوابُ أن يأخذ قدْرَ ما يطيق، ويعيد في وقتين من النَّهار والليل، ويرفِّه القوى في بقية الزمان، والدوام أصلٌ عظيم، فكم ممَّن ترك الاستذكار بعد الحفظ فضاع زمنٌ طويلٌ في استرجاع محفوظٍ قد نُسِي.

وللحفظ أوقاتٌ من العمر، فأفضلُها الصِّبا، وما يقاربه من أوقات الزمان، وأفضلُها إعادةُ الأسحار وأنصافِ النَّهار، والغدوات خيرٌ من العشيات، وأوقاتُ الجوع خيرٌ من أوقات الشِّبع.

ولا يُحمَدُ الحِفظُ بحضرة خُضْرةٍ وعلى شاطئ نهرٍ؛ لأنَّ ذلك يُلْهي، والأماكنُ العالية للحفظ خيرٌ من السوافل، والخلوةُ أصلٌ، وجمع الهمِّ أصلُ الأصول، وتركُ النفس من الإعادة يوماً في الأسبوع ليثبت المحفوظ، وتأخذَ النَّفس قوةً كالبنيان يُترك أياماً حتى يستقرَّ، ثم يُبنى عليه، وتقليلُ المحفوظ مع الدوام أصلٌ عظيم، وألَّا يشرَعَ في فنٍّ حتى يُحْكِمَ ما قبله.

ومَنْ لم يجد نشاطاً للحفظ فليتركْه، فإنَّ مكابرة النفس لا تصلُح، وإصلاح المزاج من الأصول العظيمة، فإنَّ للمأكولات أثراً في الحفظ.

قال الزُّهري: ما أكلتُ خلًّا منذ عالجتُ الحفظ.

وقيل لأبي حنيفة: بمَ يُستعان على حفظ الفقه؟ قال: بجمعِ الهمِّ.

وقال حمَّاد بن سلمة: بِقلَّةِ الغَمِّ.

وقال مكحول: مَنْ نَظَّف ثوبَه قلَّ هَمُّه، ومَنْ طابت ريحُهُ زاد عقلُه، ومَنْ جمع بينهما زادت مروءتُه.

وأختار للمبتدئ في طلبِ العلمِ أن يدافع النِّكاح مهما أمكن، فإنَّ أحمد بن حنبل لم يتزوَّج حتى تمَّت له أربعونَ سنة، وهذا لأجل جمع الهمِّ، فإنْ غلبَ عليه الأمر تزوَّج، واجتهد في المدافعة بالفعل؛ لتتوفرَ القوةُ على إعادة العلم.

ثم لينظرْ ما يحفظ من العلم، فإنَّ العُمرَ عزيزٌ، والعلمَ غزيرٌ، وإنَّ أقواماً يصرفون الزمان إلى حفظ ما غيرُه أولى منه، وإنْ كان كلُّ العلوم حسناً، ولكن الأولى تقديمُ الأهمِّ والأفضل، وأفضل ما تُشُوغل به حفظُ القرآن، ثم الفقه، وما بعد هذا بمنزلة تابع، ومَنْ رُزِق يقظةً دلَّته يقظتُهُ، فلم يحتجِ إلى دليل، ومَنْ قصد وجه الله تعالى بالعلم دلَّه المقصودُ على الأحسن ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

لا بدَّ لطالب العلم من ترقيق القلب

تأمَّلت العلمَ والمَيْل إليه والتشاغل به، فإذا هو يُقوِّي القلبَ قوةً تميل به إلى نوع قساوة، ولولا قوةُ القلب وطولُ الأمل يوماً لم يقع التشاغل به، فإنِّي أكتبُ الحديث أرجو أن أَرْويه، وأبتدئ بالتَّصنيف أرجو أن أُتمَّه، فإذا تأمَّلت باب المعاملات قلَّ الأمل، ورقَّ القلب، وجاءتِ الدُّموع، وطابت المناجاةُ، وغشيتِ السكينة، وصِرْتُ كأني في مقام المراقبة. إلَّا أنَّ العلم أفضلُ، وأقوى حجةً، وأعلى رتبةً، وإنْ حدث منه ما شكوت منه، والمعاملة وإن كثرت الفوائد التي أشرت إليها منها، فإنَّها قريبةٌ إلى أحوال الجبان الكسلان، الذي قد اقتنع بصلاحِ نفسِهِ عن هداية غيره، وانفرد بعُزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربِّهم.

فالصوابُ العكوفُ على العلم مع تلذيع النَّفس بأسباب المُرققات تلذيعاً لا يَقْدَحُ في كمالِ التشاغل بالعلم، فإنِّي لأكره لنفسي من جهة ضعف قلبي ورقته أن أكثر زيارة القبور، وأن أحضر المُحْتَضرين؛ لأنَّ ذلك يؤثِّر في فكري، ويخرجني من حيِّز المتشاغلين بالعلم إلى مقام الفكرِ في الموت، ولا أنتفع بنفسي مدَّة.

وفصلُ الخطاب في هذا، أنَّه ينبغي أن يُقاوَمَ المرضُ بضده، فمَن كان قلبه قاسياً شديد القسوة، وليس عنده من المراقبة ما يكفُّه عن الخطأ قاوم ذلك بذكر الموت ومحاضرة المُحتضرين.

فأمَّا مَنْ قلبُه شديد الرِّقة فيكفيه ما به، بل ينبغي له أن يتشاغل بما يُنسيه ذلك لينتفعَ بعيشه، وليفهَمَ ما يُفتي به، وقد كان الرسول ﷺ يمزحُ، ويسابق عائشة، ويتلطَّف بنفسه، فمَن سار سيرتَه عليه الصلاة والسلام فَهِمَ من مضمونها ما قُلْتُهُ من التلطُّف بالنفس.

روحانية طالب العلم طريقها الخلوة

كنتُ في بداية الصَّبوة قد أُلهِمْتُ سلوكَ طريق الزُّهَّاد بإدامة الصوم والصلاة، وحُبِّبت إليَّ الخَلوة، فكنتُ أجدُ قلباً طيباً، وكانت عينُ بصيرتي قويةَ الحِدَّة تتأسَّف على لحظةٍ تمضي في غير طاعةٍ، وتبادرُ الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوعُ أنسٍ وحلاوةُ مناجاة، فانتهى الأمر إلى أن صار بعضُ ولاة الأمور يستحسن كلامي، فأمالني إليه، فمالَ الطبعُ، ففقدتُ تلك الحلاوة، ثم استمالني آخر، فكنتُ أتَّقي مخالطتَه، ومطاعمَه لخوف الشُّبهات، وكانت حالتي قريبةً، ثم جاء التأويل فانبسطتُ فيما يُباح، فعُدم ما كنت أجد، وصارت المخالطةُ توجب ظلمةً في القلب إلى أن عُدِمَ النُّورُ كلُّه، فكان حنيني إلى ما ضاع مني يوجب انزعاج أهل المجلس، فيتوبون ويصلحون، وأخرجُ مفلساً فيما بيني وبين حالي.

وكَثُر ضجيجي من مرضي، وعجِزتُ عن طبِّ نفسي، فلجأتُ إلى قبورِ الصالحين، وتوسَّلتُ في صلاحي، فاجتذبني لطفُ مولاي بي إلى الخَلوة على كراهةٍ مني، وَرَدَّ قلبي عليَّ بعد نفوره عني، وأراني عيبَ ما كنت أؤثره، فأفقْتُ من مرض غفلتي! وقلتُ في مناجاة خلوتي: سيدي كيفَ أقدر على شكرك؟ وبأي لسانٍ أنطقُ بمدحك؟ إذ لم تؤاخذني على غفلتي، ونبَّهتني من رَقْدَتي، وأصلَحتَ حالي على كرهٍ من طبعي، فما أربحني فيما سلبتَ منِّي؛ إذ كانت ثمرتُهُ اللَّجأَ إليك، وما أوفر جمعي إذ ثمرتهُ إقبالي على الخلوةِ بك، وما أغناني إذ أفقرتني إليك، وما آنسني إذ أوحشتني بالتجارب من خلقك، آهٍ على زمانٍ ضاع في غير خدمتك! أسفاً لوقتٍ مضى في غير طاعتك.

قد كنتُ انتبهتُ وقت الفجر لا يؤلمني نومي طولَ الليل، وإذا انسلخ عنِّي النَّهارُ لا يوجعني ضياعُ ذلك اليوم، وما علمتُ أنَّ عدم الإحساس لقوةِ المرض.

فالآن قد هبَّت نسائمُ العافية، فأحسستُ بالألم فاستدللتُ على الصِّحة؛ فيا عظيم الإنعام تَمِّمْ ليَ العافية!

آهٍ مِنْ سُكرٍ لم يُعْلَمْ قَدْرُ عربدته إلَّا في وقت الإفاقةِ! لقد فَتَقْتُ ما يصعُبُ رَتْقُه؛ فوأسفاه على بضاعةٍ ضاعت! وعلى ملَّاحٍ تعِب في موج الشَّمال مصاعداً مدةً، ثم غلبه النومُ فرُدَّ إلى مكانه الأول.

يا مَنْ يقرأ تحذيري من التخليط! فإنِّي وإن كنت خُنْتُ نفسي بالفعل نصيحٌ لإخواني بالقول، احذروا إخواني من الترخُّص فيما لا يؤمن فساده؛ فإنَّ الشيطان يزيِّنُ المباحَ في أول مرتبة، ثم يجرُّ إلى الجُناح، فتلمَّحوا المآل، وافهموا الحالَ، وربما أراكم الغاية الصالحة، وكان في الطريق إليها نوع مخالفة، فيكفي الاعتبار في تلك الحال بأبيكم ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] إنَّما تأمل آدم الغايةَ، وهي الخلد، ولكنَّه غلط في الطريق.

وهذا أعجبُ مصائد إبليس يصيدُ بها العلماء، يتأوَّلون لعواقب المصالح، فيستعجلون ضررَ المفاسد، مثاله: أن يقول للعالِم: ادخل على هذا الظالم، فاشفع في مظلوم، فيستعجل الداخلُ رؤية المنكرات، ويتزلزلُ دينُهُ، وربما وقع في شرك صار به أظلمَ من ذلك الظالم، فمَن لم يثق بدينه؛ فليحذر من المصائد، فإنَّها خفية. وأَسْلَمُ ما للجبان العُزْلَةُ، خصوصاً في زمان قد مات فيه المعروف، وعاش المنكر، ولم يبقَ لأهلِ العلم وقعٌ عند الولاة؛ فمن داخلهم دخل معهم فيما لا يجوز، ولم يَقدِرْ على جذبهم مما هم فيه.

ثم مَنْ تأمَّل العلماءَ الذين يعملون لهم في الولايات يراهم منسلخين مِنْ نَفْعِ العلم، قد صاروا كالشُّرَط؛ فليس إلَّا العزلةُ عن الخَلْق، والإعراضُ عن كلِّ تأويلٍ فاسدٍ في المخالطةِ، ولأن أنفعَ نفسي وحدي خيرٌ لي من أن أنفعَ غيري وأتضرر.

فالحذرَ الحذرَ من خوادع التأويلات، وفواسدِ الفتاوى! والصبرَ الصبرَ على ما توجبه العزلة، فإنَّه إن انفردْتَ بمولاك فتحَ لك بابَ معرفته، فهان كلُّ صعبٍ،

وطاب كلُّ مُرٍّ، وتيسَّر كلُّ عُسْرٍ، وحصلتَ على كل مطلوب، والله الموفِّقُ بفضله، ولا حول ولا قوَّةَ إلَّا به.

لا بدَّ مع الفقه والحديث من الرقائق وسِيَر السَّلف

رأيتُ الاشتغالَ بالفقه وسماعَ الحديث لا يكادُ يكفي في صلاح القلب، إلَّا أَنْ يُمزجَ بالرقائق والنظر في سِيَرِ السَّلفِ الصَّالحين، فأمَّا مجرَّدُ العلم بالحلال والحرام فليس له كبير عَمَلٍ في رِقَّةِ القلب، وإنَّما ترقُّ القلوب بذكر رقائق الأحاديث، وأخبار السَّلَف الصالحين؛ لأنَّهم تناولوا مقصودَ النَّقل، وخرجوا عن صورِ الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها، وما أخبرتُك بهذا إلَّا بعد معالجةٍ وذوق؛ لأنِّي وجدتُ جمهور المحدِّثين وطلابَ الحديث هِمَّة أحدهم في الحديث العالي، وتكثير الأجزاء.

وجمهورُ الفقهاء في علوم الجدل، وما يغالِبُ به الخصم، وكيف يرقُّ القلب مع هذه الأشياء؟ وقد كان جماعة من السَّلف يقصِدون العبدَ الصالح للنَّظر إلى سَمْته وهديه، لا لاقتباسِ علمه، وذلك أنَّ ثمرة علمه هديُه وسَمْتُه. فافهم هذا، وامزجْ طلبَ الفقه والحديث بمطالعة سِيَرِ السَّلَفِ والزُّهَّاد في الدُّنيا؛ ليكون سبباً لرقَّةِ قلبك، وقد جمعتُ لكلِّ واحدٍ من مشاهير الأخيار كتاباً فيه أخباره وآدابه، فجمعتُ كتاباً في أخبار الحسن، وكتاباً في أخبار سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وبِشْر الحافي، وأحمد بن حنبل، ومعروف، وغيرهم من العلماء والزُّهَّاد. والله الموفِّق للمقصود.

ولا يصلحُ العمل مع قلَّة العلم، فهما في ضرب المَثَل كسائق وقائد، والنفس بينهما حَرون، ومع جِدِّ السائق والقائد ينقطعُ المنزل، ونعوذ بالله من الفتور.

سلامة العقل طريق العلم والمعرفة

معرفة الله سبحانه لا تحصل إلَّا لكامل العقل، صحيحِ المزاج، والترقي إلى محبَّته بذلك يكون.

وإنَّ أقواماً قلَّت عقولُهم، وفسدت أمزجتُهم، فساءت مطاعمُهم، وقلَّت،

فتخايلتْ لهم الخَيالات الفاسدة، فادَّعوا معرفة الحقِّ، ومحبَّتَهُ، ولم يكن عندهم من العلم ما يصدُّهم عمَّا ادَّعوا، فهلكوا.

وليعلم أنَّ في المأكولات إفسادَ العقل، وفيها ما يزيد في السَّوداء، فيوجب الماليخوليا، فترى صاحبها يحبُّ الخلوة، ويهربُ من الناس، ويقلِّلُ المطعم، فيقوى مرضُه، فيتخايل له خيالات يظنُّها حقّاً. فمنهم مَنْ يقول: إنِّي رأيت الملائكة، وفيهم مَنْ يُخْرِجه الأمر إلى دعوى محبَّةِ الحقِّ والولَهِ فيه، ولا يكون ذلك عن أصلٍ معتمد عليه.

وإنَّما العاقلُ العالم يسير في الطريق بين الرفيقين: العلم، والعقل، فإن تقلَّل من الطعام، فبعقل، وحدُّ التقلل تركُ فضول المطعم، وما يخاف شره من شبهة أو شهوة يحذر تعوُّدها، وأمَّا زيادة التقلُّل مع القدرة فليس لعقلٍ ولا شرعٍ إلَّا أن يكون الفقر عمَّ، فيتقلَّل ضرورة، ومن تأمَّل حالَ رسول الله ﷺ وأصحابه، وجدهم يأخذون بمقدار، ولا يتركون حظوظَ النفس التي تصلحُها.

وأحسن الأمر وأعدله قول رسولِ الله ﷺ: «ثلثٌ طعام، وثلثٌ شراب، وثلثٌ نَفَس».

وقد قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض: «أصِب من هذا الطعام فهو أوفق لك من هذا» وكان ﷺ يشاورُ الأطباء، ويحتجم، ويحثُّ على التداوي ويقول: «ما أنزلَ اللهُ داءً إلَّا وأنزل له شفاءً، فتداووا».

التزام صاحب الشرع هو الجادة السليمة

الجادةُ السليمةُ والطريقُ القويمة الاقتداءُ بصاحبِ الشَّرع، والبدار إلى الاستنان به، فهو الكاملُ الذي لا نَقْصَ فيه.

فإنَّ خلقاً كثيراً انحرفوا إلى جادة الزُّهد، وحمَّلوا أنفسهم فوق الجَهْد، فأفاقوا في أواخر العمر، والبدنُ قد نُهِك، وفاتت أمورٌ مهمَّةٌ من العلم وغيره.

وإنَّ أقواماً انحرفوا إلى صورةِ العلم، فبالغوا في طلبه، فأفاقوا في أواخر قدم، وقد فاتهم العملُ به.

فطريقُ المصطفى ﷺ العلمُ والعمل، والتلَطُّفُ بالبدن، كما أوصى عبدَ الله بن عمرو بن العاص وقال له: «إنَّ لنفسك عليك حقّاً، ولزوجكَ عليكَ حقّاً» فهذه هي الطريقُ الوسطى الفضلى.

فأمَّا اليُبْسُ المجرَّد، فكم فَوَّت من علم، لو حَصَل نِيْل به أكثرُ مما نيلَ بالعملِ، فإنَّ مَثَلَ العالم كرجلٍ يعرفُ الطريق، والعابدُ جاهلٌ بها، فيمشي العابد من الفجر إلى العصر، ويقومُ العالم قبيلَ العصرِ فيلتقيان، وقد سبق العالمُ فضل شوطه.

فإن قال قائل: بيِّن لي هذا؟ قلت: صورةُ التعبُّد خدمةٌ لله تعالى، وذلٌّ له، وربما لم يطلعِ العابد على معنى تلك الصورة؛ لأنَّه ربما ظنَّ أنَّه أهلٌ لوجودِ الكرامةِ على يده، وأنَّه مستحقٌّ تقبيلَ يده، أو أنَّه خيرٌ من كثيرٍ من الناس، وذلك كلّه لقلةِ العلم، وأعني بالعلم، فهمَ أصولِ العلم لا كثرةَ الرواية ومطالعة مسائل الخلاف، فإذا طالعَ العالمُ الأصولي، سبق هذا العابدَ بحسن خُلُقٍ، ومداراةٍ للناس، وتواضعه في نفسه، وإرشادِه الخلق إلى الله تعالى، فيَعسُرُ هذا على العابد وهو في ليل جهله بالحال راقد.

ربَّما تزوَّج العابدُ، ثم حمل نفسه على التجفُّف، فحبسَ زوجته عن مطلوبها، ولم يُطَلِّقْها، وصارَ كالتي حبست الهِرَّةَ «فلا هيَ أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكلُ من خَشاشِ الأرض».

ومَنْ تأمَّل حالةَ الرسول ﷺ رأى كاملاً من الخلق، يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فتارةً يمزح، وتارةً يضحك، ويداعبُ الأطفال، ويسمعُ الشِّعر، ويتكلَّم بالمعاريض، ويُحْسِنُ معاشرةَ النِّساء، ويأكل ما قدر عليه وفتح له، وإن كان لذيذاً كالعسل، ويُسْتَعْذَبُ له الماء، ويُفْرَشُ له في الظلِّ، ولم ينكر ذلك، ولم يسمع عنه بمثل ما حدث بعده من جهال.

الفصل السابع

في أدب المعلمين

الأعمال بالنيات يا علماء

يا قوم، قد علمتم أنَّ «الأعمال بالنيَّات»، وقد فهمتم قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وقد سمعتم عن السَّلف أنَّهم كانوا لا يعملون، ولا يقولون حتى تتقدم النِّيَّة، وتصحَّ. أيذهب زمانكم يا فقهاء في الجدل والصياح؟ وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوامِّ تقصدون المغالبة، أوَما سمعتم: «مَنْ طلب العلمَ ليباهي به العلماء، أو ليماري به السُّفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه، لم يَرَحْ رائحةَ الجنَّة»[1] ثم يُقدِم أحدكم على الفتوى وليس من أهلها، وقد كان السَّلف يتدافعونها.

يا معشر المتزهِّدين، إنَّه يعلم السرَّ وأخفى، أتُظهِرون الفقرَ في لباسكم وأنتم تستوفون شهوات النفوس؟ وتُظهِرون التخاشعَ والبكاء في الجَلَوات دون الخَلَوات.

كان ابنُ سيرين يضحك ويقهقهُ، فإذا خلا بكى أكثرَ الليل. وقال سفيان لصاحبه: ما أَوْقَحكَ تصلي والنَّاسُ يرونك؟

أفْدِي ظِباءَ فلاةٍ ما عَرَفْنَ بها   مضغَ الكلام ولا صَبْغَ الحواجِبِ

(١) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (١٠٠) و(١٠١) من حديث أنس، و(١٠٢) من حديث أبي هريرة، وإسنادهما ضعيف.

آهٍ للمُرائي من يوم ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وهي النيَّات فأفيقوا من سُكْرِكُم، وتوبوا من زلَلِكم، واستقيموا على الجادَّة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

صحة قصد العالم

إذا صحَّ قصدُ العالم استراح مِنْ كُلَف التكليف، فإنَّ كثيراً من العلماء يأنفون من قول: لا أدري، فيحفظون بالفتوى جاهَهم عند الناس لئلا يقال: جهلوا الجوابَ، وإن كانوا على غير يقينٍ ممَّا قالوا، وهذا نهاية الخذلان.

وقد روي عن مالك بن أنس أنَّ رجلاً سأله عن مسألة، فقال: لا أدري! فقال: سافرت البلدان إليك! فقال: ارجع إلى بلدِك، وقل: سألت مالكاً، فقال: لا أدري.

فانظر إلى دين هذا الشخص وعقله كيف استراحَ من الكُلْفة، وسَلِم عند الله عزَّ وجل، ثم إن كان المقصودُ الجاهَ عندهم، فقلوبُهم بيد غيرهم.

عزلة العالم

ما أعرف للعالِم قطُّ لذةً، ولا عزّاً، ولا شرفاً، ولا راحةً، ولا سلامة أفضل من العزلة، فإنَّه ينال بها سلامةَ بدنه، ودينه، وجاهه عندَ الله عزَّ وجل وعند الخلق؛ لأنَّ الخلق يهون عليهم مَنْ يخالطهم، ولا يعظُمُ عندهم قول المخالط لهم، ولهذا عظُمَ قدْر الخلفاء لاحتجابهم، وإذا رأى العوامُّ أحدَ العلماء مترخِّصاً في أمرٍ مباحٍ هان عندهم، فالواجبُ عليه صيانةُ علمه، وإقامةُ قَدْرِ العلم عندهم.

فقد قال بعضُ السلف: كنَّا نمزح ونضحك، فإذا صِرْنا يقتدى بنا، فما أراه يسعنا ذلك.

وقال سفيانُ الثوري: تعلَّموا هذا العلم، واكظِموا عليه، ولا تخلِطوه بهَزْل، فتمُجُّه القلوب.

فمراعاةُ الناس لا ينبغي أن تنكر، وقد قال ﷺ لعائشة: «لولا حِدْثانُ قومكِ بالكُفْرِ لنقضتُ الكعبة وجعلْتُ لها بابين»[١].

وقال أحمدُ بن حنبل في الركعتين قبلَ المغرب: رأيتُ الناسَ يكرهونها فتركتُها، ولا تسمعْ من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياءً، إنَّما هذه صيانةٌ للعلم.

وبيان هذا أنَّه لو خرج العالمُ إلى الناس مكشوفَ الرأس، أو في يده كِسْرة يأكلها قلَّ عندهم وإن كان مباحاً، فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحِمْية.

فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوامِّ حفظاً لهم، ومتى أراد مباحاً فليستتر به عنهم، وهذا القدرُ الذي لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمرَ بن الخطاب ﷺ قد قدم الشام راكباً على حمارٍ ورجلاه من جانب، فقال: يا أمير المؤمنين! يتلقاك عظماءُ الناس! فما أحسنَ ما لاحظ! إلَّا أنَّ عمر ﷺ أراد تأديبَ أبي عبيدة بحفظ الأصل، فقال: إنَّ الله أعزَّكم بالإسلام، فمهما طلبتُم العزَّ في غيره أذلَّكم.

والمعنى: ينبغي أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصورِ الأفعال، وإن كانت الصُّور تلاحظ، فإنَّ الإنسانَ يخلو في بيته عُرياناً، فإذا خرج إلى الناس لبس ثوبين، وعمامةً، ورداءً، ومثل هذا لا يكون تصنُّعاً، ولا ينسب إلى كِبْر.

وقد كان مالكُ بنُ أنس يغتسل، ويتطيَّب، ويقعد للحديث.

ولا تلتفتْ يا هذا إلى ما ترى من ذلِّ العلماء على أبواب السلاطين، فإنَّ العُزلة أصونُ للعالم والعلم، وما يخسرُهُ العلماء في ذلك أضعافُ ما يربحونه، وقد كان سيِّدُ الفقهاء سعيدُ بن المسيَّب لا يغشى الولاة. وهذا فعلُ الحازم.

فإنْ أردتَ اللَّذَّةَ والراحةَ، فعليك أيُّها العالمُ بقَعرِ بيتِك، وكن معتزلاً عن أهلك يَطِبْ لكَ عيشُك، واجعلْ للقاءِ الأهل وقتاً، فإذا عرفوه، تصنَّعوا للقائك، فكانت المعاشرةُ بذلك أجودَ.

وليكنْ لك بيتٌ في بيتك تخلو فيه، وتحادثُ سطورَ كتبك، وتجري في حَلبات فكرِك، واحترس من لقاء الخلقِ وخصوصاً العوام، واجتهد في كسبٍ يعفُّك عن

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٦) من حديث عائشة ﷺ.

الطمع، فهذه نهايةُ لذةِ العالم في الدُّنيا، وقد قيل لابن المبارك: مالك لا تجالسنا؟ فقال: أنا أذهبُ فأجالس الصحابة والتابعين، وأشار بذلك إلى أنَّه ينظرُ في كتبه.

ومتى رُزِقَ العالمُ الغنى عن الناس والخلوة، فإن كان له فهمٌ يجلب التصانيف، فقد تكاملت لذَّته، وإن رزق فهماً يرتقي إلى معاملة الحقِّ ومناجاته، فقد تعجَّل دخولَ الجنَّة قبل الممات، نسألُ الله عزَّ وجل همَّةً عاليةً تسمو إلى الكمال، وتوفيقاً لصالح الأعمال، فالسالكون طريقَ الحق أفرادٌ.

العزلة النافعة في العلم

بكَّرت يوماً أطلب الخلوةَ إلى جامع الرُّصافة، فجعلت أجول وحدي وأتفكَّر في ذلك المكان، ومن كان به من العلماء والصالحين، ورأيت أقواماً قد جاوروا فيه، فسألت أحدَهم: منذ كم أنت هاهنا؟ فأومأ إلى قريبٍ من أربعين سنة، فرأيته في بيتٍ كثيرَ الدَّرَن والوسخ، وجعلت أتفكَّر في حبسه لنفسه عن النكاح هذه المدة، فأخذت النفس تحسِّن ذلك، وتذمُّ الدنيا والاغترار بها، فأقبل العلمُ ينكر على النفس، ونهض الفَهْمُ لحقائق الأمور، وموضوعُ الشرع يقوِّي ما قال العلم، فتجلَّى من ذلك أن قلتُ للنفس: اعلمي أنَّ هؤلاء على ضربين:

منهم من يجاهد نفسه في الصَّبر على هذه الأحوال، فتفوته فضائلُ المخالطة لأهل العلم والعمل، وطلبُ الولد، ونفعُ الخلق، وانتفاعُ نفسه بمجالسة أهل الفهم، فيحدث له من نفسه حالةٌ تشابه فيها الوحش، فتؤثر الانفرادَ لنفس الانفراد، وربَّما حبس الطبع، وساء الخُلُق، وربَّما حدَّث من حبس مائةِ المحتقنِ سُمِّيةٌ أفسدت بدنه وعقله، وربَّما أورثته الخلوةُ وسوسةً، وربَّما ظنَّ أنَّه من الأولياء واستغنى بما يعرفه، وربَّما خيّل له الشيطان أشياءَ من الخيالات وهو يعدُّها كرامات، وربَّما ظنَّ أنَّ الذي هو فيه الغاية، ولا يدري أنَّه إلى الكراهة أقرب، فإنَّ رسول الله ﷺ: نهى أن يبيتَ الرجل وحده، وهؤلاء كلٌّ منهم يبيت وحدَه، ونهى عن التبتُّل وهذا تبتُّل، ونهى عن الرهبانية، وهذا من خفيِّ خِدَع إبليس التي يوقع بها في ورطات الضلال بألطف وجهٍ وأخفاه.

والضرب الثاني: مشايخ قد فَنُوا، فانقطعوا ضرورةً، إذ ليس لأحدهم مأوًى، فهم في مقام الزَّمْنى، وإن كان الضَّرب الأول قد قطعوا حبل نفوسِهم في العلم، والعمل، والكسب، وتعلَّقت همَمُهم بفتوح يطرُق عليهم الباب، فرضوا بالعمى بعد البصر، وبالزمن بعد الإطلاق.

العزلةُ دواء

لا يصفو التعبُّدُ والتزهُّدُ والاشتغالُ بالآخرةِ إلَّا بالانقطاعِ الكُلِّيِّ عن الخلق، بحيثُ لا يُبصرهم، ولا يسمع كلامَهم إلَّا في وقتِ ضرورة، كصلاة جمعة، أو جماعة، ويَحترِز في تلك الساعات منهم.

وإن كان عالماً يريد نفعَهم، وعَدَهم وقتاً معروفاً، واحترز في الكلام.

وأمَّا مَن يمشي في الأسواق اليوم، ويبيع ويشتري مع هذا العالَمِ المظلم، ويرى المنكرات والمستهجنات، فما يعودُ إلى البيت إلَّا وقد أظلم القلبُ.

فلا ينبغي للمريدِ أن يكون خروجُه إلَّا إلى الصحراء والمقابر، وقد كان جماعةٌ من السَّلف يبيعون ويشترون ويحترزون، ومع هذا ما صفا لصافيهم وقتٌ حتى قاطعَ الخلق.

قال أبو الدرداء: زاولتُ العبادةَ والتجارة فلم يجتمعا، فاخترتُ العبادة.

فمَنْ قدرَ على الحميةِ النافعة، واضطرَّ إلى المخالطةِ والكسب للعائلة، فليحترز احترازَ الماشي في الشَّوك، وبعيدٌ سلامتُهُ.

العزلة ومنافعها للعالم والزاهد

ما أعرف نفعاً كالعزلة عن الخَلْق خصوصاً للعالم والزَّاهد، فإنَّك لا تكادُ ترى إلَّا شامتاً بنكبة، أو حسوداً على نعمة، ومَنْ يأخذ عليك غلطاتك، فيا للعزلةِ ما ألذَّها! سَلِمتْ من كدرِ غيبةٍ، وآفاتِ تصنُّعٍ، وأحوال المداجاة[1]، وتضييعِ

(١) المداجاة: المداراة.

الوقت. ثم خلا فيها القلبُ بالفكر؛ بعد ما كان مشغولاً عنه بالمخالطةِ، فدبَّر أمر دنياه وآخرته، فمثله كمثلِ الحمية يخلو فيها المِعى بالأخلاطِ فيذيبُها.

وما رأيتُ مثلَ ما يصنعُ المخالطُ؛ لأنَّه يرى حالته الحاضرةَ من لقاء الناس وكلامهم، فيشتغلُ بها عمَّا بين يديه، فمثلُهُ كمثل رجلٍ يريد سفراً قد أزِف، فجالس أقواماً، فشغلوه بالحديثِ حتى ضُرِب البوقُ وما تزوَّد، فلو لم يكن في العزلةِ إلَّا التفكير في زاد الرحيل والسَّلامة من شرِّ المخالطة كفى.

ثم لا عزلةَ على الحقيقة إلَّا للعالم والزَّاهد، فإنَّهما يعلمان مقصودَ العزلة، ويحسنان الإفادة منها، أمَّا العالمُ فعلمُهُ مؤنسُه، وكتبُه محدِّثه، والنَّظرُ في سِيَر السَّلف نديمُهُ، والتفكُّرُ في حوادث الزمانِ السابق فُرْجَتُه، فإن ترقَّى بعلمه إلى مقام المعرفةِ الكاملةِ للخالق سبحانه، وتشبَّث بأذيال محبَّته تضاعفت لذَّاتُهُ، واشتغل بها عن الأكوان وما فيها، فخلا بحبيبه، وعمل معه بمقتضى علمه.

وكذلك الزَّاهد تعبُّده أنيسُهُ، ومعبودُهُ جليسُهُ، فإن كُشِفَ لبصره عن المعمول معه غاب عن الخلقِ، وغابوا عنه.

إنَّما اعتزلا ما يؤذي؛ فهما في الوحدةِ بين جماعة، فهذان رجلان قد سلما من شرِّ الخلق، وسَلِمَ الخلقُ من شرورهما، بل هما قدوةٌ للمتعبِّدين، وعَلَمٌ للسَّالكين، ينتفع بكلامهما السَّامع، وتُحرك موعظتُهما المدامعَ، وتنتشر هيبتُهما في المجامع.

فمَنْ أرادَ أن يتشبَّهَ بأحدهما فليصابر الخلوة وإنْ كرهها، ليُثْمر له الصَّبرُ العسلَ، وأعوذ بالله من عالمٍ مخالط للعالَم، خصوصاً لأربابِ المالِ والسلاطين، يجتلبُ ويُجتلب ويُخْتلب، فما يحصل له شيء من الدنيا إلا وقد ذهب من دينه أمثاله.

ثم أين الأنفة من الذّل للفساق؟ فالذي لا يبالي بذلك هو الذي لا يذوق طعم العلم ولا يدري ما المراد به، وكأنه به وقد وقع في بادية جُرُزٍ وقَفْرٍ مُهْلك في تلك البراري، وكذلك المتزهد إذا خالط وخلط، فإنه يخرج إلى الرياء والتصنُّع والنفاق، فيفوته الحظّان، لا الدنيا ونعميها تحصّل له ولا الآخرة.

فنسأل الله عز وجل خلوةً حلوة، وعزلة عن الشر لذّة يستصلحنا فيها لمناجاته، ويلهم كلًّا منا نجاته، إنه قريب مجيب.

مخالطة العالم تكون على قدر الضرورة

مَنْ رزقه الله تعالى العلمَ، والنَّظر في سِيَرِ السَّلف، رأى أنَّ هذا العالم ظلمةٌ، وجمهورُ العالم على غير الجادة، والمخالطةُ لهم تضرُّ ولا تنفع، فالعجبُ لِمَنْ يترخَّص في المخالطةِ وهو يعلم أنَّ الطبع بصيرٌ يسرق من المخالطة، وإنَّما ينبغي أن تقعَ المخالطة للأرفع والأعلى في العلم والعمل؛ ليستفادَ منه، فأمَّا مخالطة الدُّون فإنَّها تؤذي، إلَّا أن يكونَ عامِّياً يقبل من معلمه، فينبغي أن يُخالَط بالاحتراز.

وفي هذا الزَّمان إن وقعتِ المخالطةُ للعوامِّ فهم ظلمةٌ مستحكمة، فإذا ابتُلِيَ العالم بمخالطتهم فليشمِّر ثياب الحذَر، ولتكن مجالستُهُ إيَّاهم للتذكرة والتأديب فحسب.

وإن وقعت المخالطةُ للعلماء، فأكثرُهم على غير الجادَّة، مقصودُهم صورة العلم لا العمل به، فلا تكادُ ترى مَن تذاكره أمرَ الآخرة، إنَّما شغلهم الغِيبةُ، وقصدُ الغلبة، واجتلابُ الدُّنيا، ثُمَّ فيهم من الحسد للنظراء ما لا يوصفُ.

وإن وقعتِ المخالطةُ للأمراء، فذاك تعرُّضٌ لفساد الدِّين؛ لأنَّه إن تولَّى لهم ولاية دنيوية فالظُّلمُ من ضروراتها، لغلبة العادةِ عليهم، والإعراض عن الشَّرع. وإن كانت ولاية دينية كالقضاء، فإنَّهم يأمرونه بأشياء لا يكاد يمكنه المراجعة فيها، ولو راجع لم يقبلوا، وأكثرُ القوم يخافُ على منصبه، فيفعلُ ما أُمِرَ به وإن لم يجبر، وربَّما رأيت في هذا الزَّمان أقواماً يبذلون المال ليكونوا قضاةً، أو شهوداً، ومقصودُهم الرِّفعة. ثم أكثر الشُّهود يشهد على مَنْ لا يعرفُهُ، ويقول: إنَّه معرَّف، ويدري أنَّه كذاب، وإنَّما عرَّف لأجل حبةٍ يُعطاها، وكم قد وقعت شهادة على غير المشهود عليه، وعلى مكره.

وإن وقعت المخالطةُ للمتزهِّدين، فأكثرُهم على غير الجادَّة، وعلى خلاف العلم، قد جعلوا لأنفسهم نواميس، فلا يتنسَّمون، ولا يخرجون إلى سوق، ويُظهرون التخشُّعَ الزائد، وكلّه نفاق.

فمن رزقه الله سبحانه النظرَ في سِيَرِ السَّلَفِ، ووفَّقه للاقتداء بهم أن يعتزل عن أكثر الخلق، ولا يخالطهم، فإنَّه مَنْ خالطهم أُوذي، ومَنْ دارى لم يَسْلَمْ من المداهنةِ، فالنُّصح اليوم مردود.

لا يذلّ العالم لأرباب الأموال

رأيتُ عمومَ أرباب الأموال يستخدمونَ العلماء يستذلُّونهم بشيءٍ يسير يعطونهم من زكاةِ أموالهم، فإنْ كان لأحدهم ختمةٌ قال: فلانٌ ما حَضَر، وإن مرض قال: فلان ما تردَّد، وكلُّ مِنَّته عليه شيء نزرٌ يجب تسليمه إلى مثله، وقد رضي العلماء بالذلِّ في ذلك لموضع الضرورة، فرأيتُ أنَّ هذا جهلٌ من العلماء بما يجبُ عليهم من صيانة العلم. ودواؤه من جهتين:

أحدهما: القناعة باليسير؛ كما قيل: مَنْ رضي بالخَلِّ والبَقْلِ لم يستعبدْه أحدٌ.

والثاني: صَرْف بعضِ الزمان المصروف في خدمة العلم إلى كسب الدُّنيا، فإنَّه يكونُ سبباً لإعزاز العلم، وذلك أفضلُ من صَرْف جميع الزمان في طلب العلم، مع احتمال هذا الذُّلّ.

ومَنْ تأمَّل ما تأمَّلته وكانتْ له أَنَفة قَدَّر قوته واحتفظ بما معه، أو سعى في مكتسب يكفُّه، ومَنْ لم يأنفْ من مثل هذه الأشياء لم يحظَ من العلمِ إلَّا بصورته دون معناه.

تعظيم العلم وغنى نفس العالم

حضرنا بعضَ أغذية أرباب الأموال، فرأيتُ العلماءَ أذلَّ الناس عندهم، فالعلماءُ يتواضعون لهم، ويذِلُّون لموضع طمعهم فيهم، وهم لا يحفِلُون بهم لما يعلمونه من احتياجهم إليهم، فرأيتُ هذا عيباً في الفريقين.

أمَّا في أهل الدُّنيا فوجه العَتَبِ أنَّهم كانوا ينبغي لهم تعظيم العلم، ولكنْ لجهلهم بقدْرِه فاتَهم، وآثروا عليه كسبَ الأموال، فلا ينبغي أن يُطلَب منهم تعظيمُ ما لا يعرفون ولا يعلمون قَدْرَه.

وإنَّما أعود باللوم على العلماء، وأقول: ينبغي لكم أن تصونوا أنفسَكُم التي شرُفت بالعلم عن الذلِّ للأنذال، وإن كنتم في غنى عنهم كان الذلُّ لهم والطلب منهم حراماً عليكم، وإن كنتم في كفاف فلِمَ لم تؤثروا التَّنزُّه عن الذلِّ بالعفَّةِ عن الحطام الفاني الحاصل بالذلّة.

إلَّا أنَّه يتخيَّلُ لي من هذا الأمر، أنَّي علمت قلَّة صبر النفس على الكَفاف، والعزوف عن الفضول، فإنْ وُجِد ذلك منها في وقتٍ لم يوجد على الدوام، فالأولى للعالم أن يجتهدَ في طلب الغِنى، ويبالغ في الكسب، وإن ضاع بذلك عليه كثيرٌ من زمان طلب العلم، فإنَّه يصونُ بعَرَضه عِرْضَه.

وقد كان سعيدُ بن المسيِّب يتَّجر في الزيت، وخلَّف مالاً، وخلَّف سفيان الثوري مالاً، وقال: لولاكَ لتمندلوا بي.

وحثِّي طالبي العلم على ذلك ما بيَّنتُهُ من أنَّ النَّفسَ لا تثبت على التعفُّف، ولا تصبرُ على دوامِ التزهُّد، وكم قد رأينا من شخصٍ قويت عزيمتُهُ على طلب الآخرة فأخرج ما في يده، ثم ضعُفت، فعاد يكتسبُ من أقبح وجه. فالأولى ادخارُ المال، والاستغناءُ عن الناس، ويُخرجُ الطَّمع من القلب، ويصفو نشرُ العلم من شائبة ميل، ومن تأمَّل أخبارَ الأخيار من الأحبار وجدهم على هذه الطريقة.

وإنَّما سلك طريق التَّرفه عن الكسبِ مَنْ لم يؤثر عنده بذل الدِّين والوجه، فطلبَ الراحة، ونسيَ أنَّها في المعنى عَناء، كما فعل جماعةٌ من الجهَّال في إخراج ما في أيديهم وادِّعاء التوكُّل، وما علموا أنَّ الكسبَ لا ينافي التوكُّل، وإنَّما طلبوا طريقَ الراحة، وجعلوا التعرُّضَ للناس كسباً، وهذه طريقةٌ مركَّبةٌ من شيئين: أحدُهما: قلَّةُ الأَنَفَةِ على العرض، والثاني: قلة العلم.

التصنيف والتعليم

رأيتُ من الرَّأي القويمِ أنَّ نفعَ التصانيف أكثرُ من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأنِّي أُشافه في عمري عدداً من المتعلِّمين، وأشافه بتصنيفي خلقاً لا يُحصون ما خُلقوا

بعد، ودليل هذا أنَّ انتفاعَ الناس بتصانيف المتقدِّمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم.

فينبغي للعالم أن يتوفَّر على التصانيفِ إن وُفِّق للتصنيف المفيد، فإنَّه ليس كلُّ مَنْ صَنَّف صَنَّف، وليس المقصودُ جمع شيءٍ كيف كان، وإنَّما هي أسرارٌ يُطْلِعُ الله عزَّ وجلَّ عليها من عباده، ويوفِّقُه لكشفها، فيجمعُ ما فُرِّقَ، أو يرتِّب ما شُتِّتَ، أو يشرح ما أُهْمِلَ، هذا هو التصنيفُ المفيد.

وينبغي اغتنامُ التصنيف في وسطِ العُمُر؛ لأنَّ أوائلَ العمر زمنُ الطلب، وآخره كَلالُ الحواسِّ، وربما خان الفهمُ والعقلُ مَنْ قُدِرَ عُمُرُه، وإنَّما يكون التقدير على العادات الغالبة، لا أنَّه يعلمُ الغيب، فيكون زمانُ الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين، ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصانيف والتعليم. هذا إذا كان قد بلغ ما يريدُ من الجمع والحفظ، وأُعينَ على تحصيل المطالب.

فأمَّا إذا قَلَّتِ الآلاتُ عنده من الكتب، أَنْ كان في أولِ عُمُرِهِ ضعيفَ الطَّلب، فلم ينلْ ما يريدُه في هذا الأوان، أخَّر التصانيف إلى تمام خمسين سنة، ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم إلى رأس الستين، ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم، ويسمع الحديثَ والعلم، ويعلِّل التصانيف إلى أن يقطع منهم إلى رأس السبعين، فإذا جاوز السبعين جعلَ الغالب عليه ذكرَ الآخرة، والتهيُّؤ للرَّحيل، فيوفر نفسه على نفسه إلَّا من تعليمٍ يحتسبه، أو تصنيفٍ يفتقرُ إليه، فذلك أشرفُ العُدَدِ للآخرة.

ولتكن همَّته في تنظيفِ نفسه، وتهذيب خِلاله، والمبالغةِ في استدراكِ زلَّاته، فإن اختطف في خلال ما ذكرنا؛ فـ «نيَّةُ المؤمن خيرٌ مِنْ عمله»، وإن بلغ إلى هذه المنازل، فقد بيَّنَّا ما يصلح لكلِّ منزل.

وقد قال سفيان الثوري: مَنْ بَلَغَ سِنَّ رسول الله ﷺ فليتخذ لنفسه كفناً. وقد بلغ جماعةٌ من العلماء سبعاً وسبعين سنة، منهم أحمد بن حنبل، فإنْ بلغها، فليعلمْ أنَّه على شفيرِ القبر، وأنَّ كلَّ يومٍ يأتي بعدها مستطرفٌ، فإن تمَّت له الثمانون، فيجعل همَّته كلَّها مصروفة إلى تنظيف خلاله، وتهيئة زاده، وليجعل الاستغفارَ حليفَه،

والذكرَ أليفَه، وليدقِّقْ في محاسبةِ النفس في بذل العلم، أو مخالطةِ الخَلْقِ، فإنَّ قُرْبَ الاستعراض للجيش يوجبُ عليهم الحذرَ من العارض، وليبالغ في إبقاء أثره قبل رحيله، مثلُ بثِّ علمِهِ، وإنفاق كتبهِ وشيءٍ من ماله.

وبعد فَمَنْ تولَّاه الله عزَّ وجلَّ علَّمه، ومَنْ أراد ألهمه. نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يُنعمَ علينا بأن يتولَّانا، ولا يتولَّى عنَّا، إنَّه قريبٌ مجيب.

علو همَّةِ العلماء في مطالعة الكتب

كانت هممُ القدماء من العلماءِ عليَّة، تدلُّ عليها تصانيفُهم التي هي زُبدةُ أعمالهم، إلَّا أنَّ أكثر تصانيفهم دَثَرَتْ؛ لأنَّ هِمَمَ الطلاب ضعُفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطوَّلات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدَثرت الكتب ولم تُنْسخ.

فسبيلُ طالب الكمال في طلب العلم الاطلاعُ على الكتب التي قد تخلَّفت من المصنَّفات، فليكثرْ من المطالعة، فإنَّه يرى من علوم القوم وعلوِّ هِمَمِهم ما يشحَذُ خاطره، ويحرِّك عزيمته للجِدِّ، وما يخلو كتابٌ من فائدة. وأعوذ بالله من سِيَرِ هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همَّةٍ عالية، فيقتدي بها المبتدئ، ولا صاحب ورع، فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، عليكم بملاحظة سِيَر السلف، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثارُ مِنْ مطالعة كتبهم رؤيةٌ لهم كما قال:

فاتني أن أَرَى الديارَ بَطَرْفي فلعلِّي أرَ الديارَ بسَمْعِي

وإني أُخبر عن حالي: ما أشبعُ من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره فكأني وقعت على كنزٍ، ولقد نظرت في ثَبَت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستَّةِ ألافِ مجلَّد، وفي ثَبَت كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب، وابن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشَّاب، وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كلِّ كتاب أقدر عليه. ولو قلت: إنِّي طالعتُ عشرين ألف مجلَّد كان أكثر، وأنا بعدُ في الطلب، فاستفدْتُ بالنَّظر فيها من ملاحظةِ سِيَرِ

القوم، وقَدْر همَمِهم، وحفظهم، وعباداتهم، وغرائب علومهم ما لا يعرفه مَنْ لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر هِمَمَ الطُّلاب، ولله الحمد.

العالم يخاطب الناس على قدر عقولهم

من المخاطرات العظيمة تحديثُ العوام بما لا تحتمله قلوبُهم، أو بما قد رسخ في نفوسهم ضدّه.

مثاله: أنَّ قوماً قد رسخ في قلوبهم التشبيهُ، وأنَّ ذات الخالق سبحانه ملاصقةٌ للعرش، وهي بقدر العرش، ويفضل من العرش أربعة أصابع، وسمعوا مثل هذا من أشياخهم، وثبت عندهم: أنَّه إذا انتقل إلى السماء الدنيا، فخلت منه ستُّ سموات، فإذا دُعي أحدُهم إلى التنزيه، وقيل له: ليس كما خطرَ لك، إنَّما ينبغي أن تُمِرَّ الأحاديث كما جاءت من غير مساكنة ما توهمته صَعُب هذا عليه لوجهين:

أحدهما: لغلبة الحسِّ عليه، والحسُّ على العوام أغلب.

والثاني: لما قد سمعه من ذلك من الأشياخ الذين كانوا أجهل منه.

فالمخاطبُ لهذا مخاطرٌ بنفسه، ولقد بلغني عن بعض مَنْ كان يتديَّن ممن قد رسخ في قلبه التشبيه أنَّه سمع من بعض العلماءِ شيئاً من التنزيه، فقال: والله لو قدرت عليه لقتلته. فالله الله أن تحدِّث مخلوقاً من العوام بما لا يحتمله، فإنَّه لا يزول ما في نفسه، ويخاطر المحدِّث له بنفسه، فكذلك كلُّ ما يتعلق بالأصول.

عزلة العالم عن تعليم المتعلِّمين يخالف هدي المرسلين

ما زالت نفسي تُنازعني بما يوجبه مجلسُ الوعظ، وتوبة التائبين، ورؤية الزاهدين إلى الزهد، والانقطاع عن الخلق، والانفراد بالآخرة، فتأمَّلت ذلك، فوجدت عمومَه من الشيطان، فإنَّ الشيطان يرى أنَّه لا يخلو لي مجلسٌ من خَلْقٍ لا يُحْصَون، يبكون ويندبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون، ويقطعون شعور الصبا، وربما اتفق خمسون ومئة.

ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مئة، وعمومهم صبيان قد نشؤوا على اللعب والانهماك في المعاصي، فكأنَّ الشيطان لبعد غوره في الشرِّ رآني أجتذب إليَّ من اجتذب منه، فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفهُ ليخلو هو بمن أجتذبه من يده، ولقد حسَّن إليَّ الانقطاع عن المجالس، وقال: لا يخلو من تصنُّعٍ للخلق. فقلت: أمَّا زخرفةُ الألفاظ وتزويقُها، وإخراجُ المعنى من مُستَحسَنِ العبارةِ ففضيلةٌ لا رذيلة، وأمَّا أن أقصد الناس بما لا يجوز في الشرع فمعاذ الله.

ثم رأيتُهُ يريني في التَّزهُّدِ قطعَ أسباب ظاهرها الإباحة من الاكتساب، فقلت له: فإن طابَ ليَ الزهد، وتمكَّنتُ من العزلةِ، فنفد ما بيدي، أو احتاج بعض عائلتي، ألستُ أعودُ القهقَرى؟ فدعني أجمع ما يسدُّ خَلَّتي، ويصونني عن مسألةِ الناسِ، فإن مدَّ عمري كان تَغيُّر السبب، وإلَّا كان للعائلة، ولا أكون كراكبٍ أراق ماءه لرؤية سراب، فلما ندم وقتَ الفوات لم ينتفع بالندم، وإنَّما الصوابُ توطئةُ المضجَع قبل النوم، وجمعُ المال السادِّ للخَلَّة قبل الكِبَر، أخذاً بالحزم، وقد قال الرسول ﷺ: «لأن تتركَ ورثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ لكَ من أن تتركهم عَالَةً يتكفَّفونَ النَّاسَ»[(١)]. وقال: «نِعمَ المالُ الصَّالحِ للرَّجلِ الصَّالح»[(٢)].

وأمَّا الانقطاعُ فينبغي أن تكون العزلةُ عن الشَّرِّ لا عن الخير، والعزلة عن الشَّرِّ واجبةٌ على كل حال.

وأمَّا تعليمُ الطالبين وهدايةُ المريدين، فإنَّه عبادةُ العالم، وإنَّ من تغفيل بعض العلماء إيثارَه للتنفل بالصَّلاة والصَّوم عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأنَّ ذلك بَذْرٌ يكثر رَيْعُه، ويمتدُّ زمان نفعِهِ.

وإنَّما تميلُ النَّفسُ إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين: أحدهما: حبُّ البطالة؛ لأنَّ الانقطاع عندها أسهلُ. والثاني: لحب المِدْحَة، فإنَّها إذا توسَّمَتْ بالزُّهد كان ميل العوام إليها أكثرَ، فعليك بالنظر في السِّرب الأول، فكن مع السِّرب المقدم، وهم الرسولُ ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم، فهل نُقِل عن أحد

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٥٤)، ومسلم (١٦٢٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٧٦٣) بإسناد صحيح من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

منهما ما ابتدعه جهلةُ المتزهِّدين من الانقطاع عن العلم، والانفراد عن الخَلْق؟ وهل كان شغل الأنبياء إلَّا معاناةَ الخَلْق، وحثَّهم على الخير، ونهيَهُم عن الشرِّ؟ إلَّا أن ينقطع مَنْ ليس بعالم بقصد الكفِّ عن الشرِّ، فذاك في مرتبة المحتمي يخاف شرَّ التخليط، فأمَّا الطبيب العالم بما يتناول، فإنَّه ينتفع بما يناله.

فساد العالم والجاهل

نظرتُ إلى الناس فرأيتُهم ينقسمون بين عالمٍ وجاهلٍ.

فأمَّا الجهال فانقسموا، فمنهم سلطانٌ قد رُبِّي في الجهل، ولَبِسَ الحرير، وشرب الخمور، وظلم النَّاس، وله عمَّال على مثل حاله، فهؤلاء بمعزلٍ عن الخير بالجملة.

ومنهم تجَّارٌ همَّتُهم الاكتسابُ، وجمعُ الأموال، وأكثرُهم لا يؤدي الزكاة، ولا يتحاشى من الربا، فهؤلاء في صور الناس.

ومنهم أربابُ معاشٍ، يطفِّفون المكيال، ويُخْسِرون الميزان ويبخَسون الناس ويتعاملون بالرِّبا، وهم في الأسواق طولَ النَّهار، لا همَّة لهم إلَّا ما هم فيه، فإذا جاء الليلُ وقعوا نياماً كالسُّكارى، فهمَّةُ أحدهم ما يأكل ويلتذُّ به، وليس عندهم من الصَّلاة خبر، فإن صلَّى أحدُهم نَقَرها، أو جمع بينهما، فهؤلاء في عِداد البهائم.

ومن الناس ذوو رذالة في أحوالهم، فهذا كنَّاس، وهذا زبَّال، وهذا نخَّال، وهذا يكسح الحُشَّ، فهؤلاء أرذلُ القوم.

ومنهم مَنْ يطلب اللَّذَّات، ولا يساعده المعاش، فيخرج إلى قطع الطريق، وهؤلاء أحمقُ الجماعة؛ إذ لا عيشَ لهم، فإنِ التذُّوا لحظةً بأكلٍ أو شربٍ، فحرَّكت الريح قصبة هربوا خوفاً من السُّلطان، وما أقلَّ بقاءهم، ثم القتلُ والصَّلب مع إثم الآخرة.

ومنهم أرباب قرى قد عمَّهم الجهلُ، أكثرُهم لا يتحاشى من نجاسة، فهم في زُمْرَة البقر.

ورأيت النِّساء ينقسمن أيضاً:

فمنهنَّ المستحسنةُ التي تبغي، ومنهنَّ الخائنةُ لزوجها في مالِهِ، ومنهنَّ مَنْ لا تصلِّي، ولا تعرف شيئاً من الدِّين، فهؤلاء حشوُ النار، فإذا سمعت موعظةً فإنَّها كما مرَّت على حجرٍ، وإذا قُرِئ عندهنَّ القرآنُ فكأنَّهنَّ يسمعْنَ السَّمر.

وأمَّا العلماء:

فالمبتدئون منهم ينقسمونَ إلى ذي نية خبيثةٍ، يقصدُ بالعلم المباهاةَ لا العمل، ويميل إلى الفسق ظنّاً أنَّ العلم يدفعُ عنه، وإنَّما هو حجَّةٌ عليه.

وأمَّا المتوسطون والمشهورون، فأكثرهم يغشى السلاطين، ويسكت عن إنكارِ المنكر، وقليلٌ من العلماء مَنْ تسلم له نيَّتُه ويحسُن قصده.

فمن أراد الله به خيراً رزقه حُسْنَ القصد في طلبِ العلم، فهو يحصله لينتفعَ به وينفع، ولا يبالي بعملٍ ممَّا لا يدلُّهُ عليه العلم، فتراه يتجافى عن أرباب الدُّنيا، ويحذر مخالطةَ العوام، ويقنع بالقليل خوفاً من المخالطة في الدُّنيا في تحصيل الكثير، ويؤثِر العزلةَ، فليس مذكّراً للآخرة مثلُها.

وليس على العالم أضرُّ من الدُّخول على السلاطين، فإنَّه يُحسِّنُ للعالم الدنيا، ويهون عليه المنكر، وربما أراد أن ينكر فلا يصح له، فإن عُدِمِ القناعة، وغلبته نفسُه في طلب فضول الدُّنيا سلِّمْ عليه؛ لأنَّه يتعرَّض بأربابها، وإنَّ الإنسان ليمشي في السوق ساعةً، فينسى بما يرى ما يعلم، فكيف إذا انضمَّ إلى ذلك التردُّد إلى الأغنياء، والطَّمع في أموالهم.

فأمَّا الوحدة، فإنَّها سببُ رجوع القلب، وجمع الهمِّ، والنظر في العواقب، والتهيُّؤ للرَّحيل، وتحصيل الزاد، فإذا انضمَّتْ إليها القناعةُ جلبت المستحسنة، ولا تحسنُ اليوم المجالسة إلَّا لكتاب يحدِّثك عن أسرار السَّلف، فأمَّا مجالسةُ العلماء فمخاطرة، إذ لا يجتمعون على ذكر الآخرة في الأغلب.

ومجالسة العوام فتنةٌ للدِّين، إلَّا أن يحترز مجالسهم، ويمنعهم من القول، فيقول هو، ويكلفهم السَّماع، ثم يستوفز للبعد عنهم، ولا يمكن الانقطاع الكلِّي إلَّا بقطع الطَّمع، ولا ينقطع الطَّمع إلَّا بالقناعة باليسير، أو يتميَّز بتجارة، أو أن يكون

له عقار يستغلُّه، فإنَّه متى احتاج تشتَّتَ الهمُّ، ومتى انقطع العالِمُ عن الخَلْقِ، وقطعَ طمعَه فيهم، وتوفَّر على ذكر الآخرة، فذاك الذي ينفع ويُنتَفع به. والله الموفِّق.

الغفلة عند العلماء

رأيتُ جمهورَ النَّاس حائدين عن الشَّريعة، جائزين على ما أَلِفوا من العادة، وقد يخلُص منهم فريقان: علماء، وعبَّاد.

فتأمَّلت جمهورَ العلماء، فرأيتهم في تخليط:

منهم مَنْ يقتصر على علم معاملاتِ الدنيا، ويُعرِض عن معاملات الآخرة، إمَّا لجهله بها، أو لِثقَل أمرها عليه، فهو يجري على ما يثقُل عليه مما يوجبه العلم، ويتَّبع في الباقي العادات، وربَّما تخايل أنَّه يُسامَح في الخطايا لكونه عالماً، وقد نسي أنَّ العلمَ حجةٌ عليه.

ومنهم مَنْ هو واقفٌ مع صورة العلم، غافلٌ عن المقصودِ بالعلم.

وفيهم مَنْ يخالط السلطان، فيتأذَّى المخالِطُ بما يرى من الذنوب والظلم، ولا يمكنه الإنكارُ، وربَّما مَدَح، ويتأذَّى السلطان، فيقول: لولا أنِّي على صواب ما جالسني هذا، ويتأذَّى العوام، فيقولون: لولا أنَّ أمرَ السلطان قريبٌ ما خالطه هذا العالِم.

ورأيت الأشراف يثقون بشفاعة آبائهم وينسون أنَّ اليهود من بني إسرائيل.

وأمَّا الفريق الثاني، وهم العبَّاد:

فرأيت أكثَرَهم في تخليط:

أمَّا الصَّحيحو القَصْدِ منهم فعلى غير الجادة في أكثر عملهم، قد وضع لهم جماعة من المتقدِّمين كتباً فيها دفائنُ قبيحة، وأحاديثُ غير صحيحة، ويأمرون فيها بأشياء تُخالف الشريعةَ، فإذا فتح المبتدئ عينه وهمَّ بسلوك الطريق بهذه الكتب حملته إلى الخطايا؛ لأنَّهم قد بنوا على أحاديث مُحالة، ويذمُّون الدنيا، ولا يدرون ما المذموم منها، فيتصوَّرُ المبتدئ ذمَّ ذات الدنيا، فيهربُ المنقطع إلى الجبل،

وربَّما فاتته الجماعة والجمعةُ، ويقتصر على البَلُّوط والكمَّثرى، فيورثه القُوْلَنْج، ويقنع بعضهم بشرب اللبن، فينحل الطبع، أو يأكل الباقلاء والعدس، فيحدثُ له قراقر. وإنَّما ينبغي لقاصد الحجِّ أن يرفُقَ أولاً بالناقةِ ليصل، ألا ترى للفَطِن من الأتراك يهتمُّ بفرسه قبل تحصيلِ قوتِ نفسه.

وربَّما تصدَّى القاصُّ لشرح أحوال قومٍ من السَّلف والمتزهِّدين، فيتبعهم المريد، فيتأذَّى بذلك، ومتى رددنا ذلك المنقول، وبيَّنَّا خطأً فاعله قال الجهَّال: أنردُّ على الزُّهَّاد؟! وإنَّما ينبغي اتباعُ الصَّواب، ولا ينظر إلى أسماء المعظمين في النفوس.

فإنَّا نقول: قال أبو حنيفة، ثمَّ يخالفه الشافعيُّ، وإنَّما ينبغي أن يُتبع الدليلُ.

قال المروزي: مدح أحمد بنُ حنبل النكاح، فقلت له: قد قال إبراهيم بن أدهم، فصَاحَ، وقال: وقعنا في بُنَيَّات الطريق، عليك بما كانَ عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. وتكلَّم أحمدُ في الحارث المحاسبي، وردَّ على سَرِيٍّ السَّقطي حين قال: لما خلق الله الحروف وقفَ الألف وسجدت الياء. فقال: نفِّروا الناس عنه. فالحق لا ينبغي أن يُحابى فإنَّه جِدٌّ.

وإنِّي أرى أكثرَ الناس قد حادوا عن الشريعة، وصار كلام المتزهِّدين كأنَّه شريعةٌ لهم، فيقال: قال أبو طالب المكي: كان من السلف من يزن قوته بكَرَبَة، فينقص كل يوم. وهذا شيءٌ ما عرفه رسولُ الله ﷺ ولا أصحابُهُ، وإنَّما كانوا يأكلون دون الشِّبع.

فأمَّا الحمل على النفس بالجوع فمنهيٌّ عنه، ويقول: قال داود الطائي لسفيان: إذا كنت تشرب الماءَ البارد متى تحبُّ الموت، وكان ماؤه في دَنٍّ وما علم أنَّ للنفس حظّاً، وأنَّ شُرْبَ الماء الحارِّ يرهِّل المعدةَ، ويؤذي، وأنَّ رسول الله ﷺ كان يبرِّد الماء.

ويقول آخر منهم: منذ خمسين سنة أشتهي الشِّواء، ما صفا لي درهمُه، ويقول آخر: أشتهي أن أغْمِس جزرةً في دبس، فما صحَّ لي، أتراهم أرادوا حبَّةً منذ خرجت من المعدن ما دخلت في شبهةٍ، هذا شيءٌ ما نظر فيه رسولُ الله ﷺ، وإن كان الورعُ حسناً، ولكن لا على حَمْل المشاق الشديدة.

وهذا بِشْرُ الحافي يقول: لا أُحدثُ؛ لأنِّي أشتهي أن أُحدِّث. وهذا تعليلٌ لا يصلُح، لأنَّ الإنسانَ مأمور بالنكاح، وهو من أكبر المشتهى. وكان بِشْرُ حافياً حتى قيل له: الحافي، ولو ستر أمرَه بنعلين كان أصلحَ، والحفا يؤذي العين، وليس من أمر الدنيا في شيء، فقد كان لرسول الله ﷺ نعلان، وما كانت سيرةُ رسول الله ﷺ وأصحابه على ما المتزهِّدُون عليه اليوم.

فقد كان رسولُ الله ﷺ يضحكُ ويمزحُ، ويختار المستحسنات، ويسابقُ عائشةَ رضي الله عنها، وكان يأكلُ اللحمَ، ويحبُّ الحلوى، ويُستعذَب له الماءُ، وعلى هذا كان طريقة أصحابه.

فأظهر المتزهِّدون طرائقَ كأنَّها ابتداء شريعة، وكلُّها على غير الجادَّة، ويحتجُّون بقول المحاسبي والمكِّيِّ، ولا يحتجُّ أحدٌ منهم بصحابيٍّ، ولا تابعيٍّ، ولا بإمامٍ من أئمةِ الإسلام، فإن رأوا عالماً لبس ثوباً جميلاً، أو تزوَّج مستحسنة، أو أفطر بالنَّهار، أو ضحك عابوه، فينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ أكثر من صحَّ قصدُه منهم على غير الجادة؛ لقلّة علمهم، حتى إنَّ بعضهم يقول: منذ ثمانين سنة ما اضطجعت، ويقول آخر: حلفت لا أشرب الماء سنة، وهؤلاء على غير صواب، فإنَّ للنفس حقّاً، فأمَّا مَنْ ساء قصدُهُ ممن نافق، وراءى لاجتلاب الدُّنيا، وتقبيل الأيدي فلا كلام معه.

غفلة العالم والزاهد

رأيتُ جماعةً من العلماء يتفسَّحون، ويظنُّون أنَّ العلم يدفع عنهم، وما يدرون أنَّ العلم خصمهم، أنَّه يُغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالم ذنب، وذاك لأنَّ الجاهل لم يتعرَّض بالحق، والعالم لم يتأدَّب معه، ورأيت بعض القوم يقول: أنا قد ألقيت منجلي بين الحصَّادين، ونمتُ. ثم كان ينفسح في أشياء لا تجوز.

فتفكَّرت، فإذا العلمُ الذي هو معرفةُ الحقائق، والنظرُ في سِيَرِ القدماء، والتأدُّب بآداب القوم، ومعرفةُ الحقِّ وما يجب له، ليس عند القوم، إنَّما عندهم

صورُ ألفاظٍ يعرِفون بها ما يحلُّ وما يحرم، وليس كذلك العلمُ النافع، إنَّما فَهمُ الأصول، ومعرفةُ المعبود وعظمته، وما يستحقّه، والنَّظرُ في سِيَرِ الرسول ﷺ وصحابته، والتأدُّبُ بآدابهم، وفهمُ ما نُقل عنهم، هو العلم النافع الذي يَدَعُ أعظم العلماء أحقرَ عند نفسه من أجهلِ الجُهَّال.

ورأيت بعض مَنْ تعبَّد مدةً ثم فَتَر، فبلغني أنَّه قال: قد عبدته عبادةً ما عبده بها أحد، والآن قد ضعُفْتُ! فقلت: ما أخوفني أن تكون كلمته هذه سبباً لردِّ الكلِّ؛ لأنَّه قد رأى أنَّه عمل مع الحقِّ شيئاً، وإنَّما وقف يسأل النَّجاةَ بطلب الدرجات، ففي حقِّ نفسه فعل، وما مَثلُهُ إلَّا كَمَثَلِ مَنْ وقف يُكدي، فلا ينبغي أن يمنَّ على المعطي، وإنَّما سبب هذا الانبساطِ الجهلُ بالحقائق، وأين هو من كبار علماءِ المعاملة الذين كان فيهم مثلُ صِلَة بن أَشْيَم، إذا رآه السبعُ هرب منه، وهو يقول إذا انقضى الليلُ عند صلاته: يا ربِّ أجرني من النَّار! أَوَ مثلي يسأل الجنَّةَ؟ وأبلغ من ذا قولُ عمرَ: وددت أن أنجوَ كفافاً لا لي ولا عليَّ. وقول سفيان عند موته لحماد بن سلمة: أترجو لمثلي أن ينجوَ من النار؟ وقول أحمد: لا، بعدُ.

فأنا أحمد الله عزَّ وجلّ إن تخلصت من جهل المتسمِّين بالعلم من هؤلاء الذين ذممتهم، وبالزُّهد من هؤلاء الذين عِبْتُهم، فإني قد اطلعت من عظمة الخالق وسير المحقِّقين على ما يُخرِس لسان الانبساط، ويمحو النظرَ إلى كلِّ فعل، وكيف أنظر إلى فعلي المستحسن؟! وهو الذي وهبه لي وأطلعني على ما خفي عن غيري، فهل حصل ذلك بي إلَّا بلطفِهِ؟ وكيف أشكر توفيقي للشكر؟ ثم أيُّ عالم إذا سَبَر أمور العلماء من القدماء لا يحتقر نفسه؟! هذا في صورة العلم، فدع معناه. وأيُّ عابد يسمع بالعبَّاد ولا يجري في صورة التعبدِ؟ فدع المعنى.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ معرفةً تعرِّفنا أقدارنا؛ حتى لا يبقى للعُجْب بمحتقرِ ما عندنا أثرٌ في قلوبنا، ونرغب إليه في معرفة لعظمته تُخْرِس الألسنَ أن تنطق بالإدلال، ونرجو من فضله توفيقاً نلاحظ به آفات الأعمالِ التي بها نزهو، حتى تثمر الملاحظة لعيوبها الخجل من وجودها، إنَّه قريبٌ مجيب.

الكبر عند العلماء

اعتبرت على أكثر العلماء والزُّهَّاد أنَّهم يبطنون الكِبْر، فهذا ينظر في موضعه وارتفاع غيره عليه، وهذا لا يعودُ مريضاً فقيراً يرى نفسه خيراً منه، حتى إنِّي رأيت جماعةً يُومَأُ إليهم، منهم من يقول: لا أُدفن إلَّا في دِكَّة أحمد بن حنبل، ويعلم أنَّ في ذلك كسرَ عظام الموتى، ثم يرى نفسه أهلاً لذلك التصدُّر. ومنهم من يقول: ادفنوني إلى جانب مسجدي، ظنَّاً منه أنَّه يصيرُ بعدَ موته مزوراً كمعروف الكرخي، وهذه خلَّة مهلكة، وقلَّ مَنْ رأيت إلَّا وهو يرى نفسه.

والعجبُ كلُّ العجب ممَّن يرى نفسَه، أُتراه بماذا رآها؟ إن كان بالعلم فقد سبقهُ العلماء، وإن كان بالتعبُّد فقد سبقه العُبّادُ، أو بالمال فإنَّ المال لا يوجب بنفسه فضيلةً دينية. فإن قال: قد عرفتُ ما لم يعرف غيري من العلم في زمني، فما عليَّ ممَّن تقدّم، قيل له: ما نأمرك يا حافظَ القرآن أن ترى نفسَكَ في الحفظ كَمَن يحفظ النِّصف، ولا يا فقيهُ أن ترى نفسَكَ في العلم كالعامِّيِّ، إنَّما نَحْذَرُ عليك أن ترى نفسَكَ خيراً من ذلك الشَّخص المؤمن وإن قلَّ عملُهُ، فإنَّ الخيرية بالمعاني، لا بصُور العلم والعبادة.

ومَن تلمَّح خصالَ نفسه وذنوبها علم أنَّه على يقين من الذنوب والتقصير، وهو من حال غيره على شك، فالذي يُحذَر منه الإعجابُ بالنفس، ورؤيةُ التقدُّم في أحوال الآخرة، والمؤمنُ لا يزال يحتقرُ نفسَه.

وقد قيل لعمرَ بن عبد العزيز ﵁: إنْ مِتَّ ندفنُك في حُجْرة رسول الله ﷺ، فقال: لأن ألقى الله بكلِّ ذنبٍ غير الشرك أحبُّ إليَّ من أن أرى نفسي أهلاً لذلك.

وقد روينا: أنَّ رجلاً من الرُّهبان رأى في المنام قائلاً يقول له: فلانٌ الإسكافي خيرٌ منك، فنزل من صومعته، فجاءَ إليه، فسأله عن عمله، فلم يذكر كبير عملٍ، فقيل له في المنام: عُدْ إليه وقُلْ له: ممَّ صُفرة وجهك؟ فعادَ فسأله، فقال: ما رأيت مسلماً إلَّا وظننتُهُ خيراً منِّي؛ فقيل له: فبذاك ارتفعَ.

الحسد بين العلماء

تأمَّلت التَّحاسُدَ بين العلماء، فرأيت منشأه من حبِّ الدنيا، فإنَّ علماء الآخرة يتوادُّون ولا يتحاسدون، كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ [الحشر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].

وقد كان أبو الدرداءِ يدعو كلَّ ليلةٍ لجماعة من إخوانه. وقال الإمام أحمدُ بنُ حنبلٍ لولد الشَّافعي: أبوك من الستَّةِ الذين أدعو لهم كلَّ ليلةٍ وقت السَّحر.

والأمر الفارقُ بين الفئتين أنَّ علماءَ الدنيا ينظرون إلى الرياسة فيها، ويُحِبُّون كثرةَ الجمع والثناء؛ وعلماءَ الآخرة بمعزلٍ من إيثار ذلك، وقد كانوا يتخوَّفونه، ويَرحمون من بُلِيَ به.

وكان النَّخَعي لا يستندُ إلى ساريةٍ.

وقال علقمة: أكرهُ أن يوطأ عقبي، ويقال: علقمة.

وكان بعضهم إذا جلس إليه أكثرُ من أربعةٍ قام عنهم، وكانوا يتدافعونَ الفتوى، ويُحبون الخمول.

ومَثَلُ القوم كمثلِ راكب البحر وقد خبَّ[1]، فعنده شغلٌ إلى أن يوقنَ بالنَّجاة، وإنَّما كان بعضُهم يدعو لبعض، ويستفيدُ منه؛ لأنَّهم رَكْبٌ تصاحبوا فتوادُّوا، فالأيامُ والليالي مراحلُهم إلى سفرِ الجنَّة.

البخل عند العلماء

لا يُنكر أنَّ الطباعَ تحبُّ المال؛ لأنَّه سبب بقاء الأبدان، لكنَّه يزيد حبُّه في بعض القلوب حتى يصيرَ محبوباً لذاته، لا للتوصُّل به إلى المقاصد، فترى البخيل

(١) خبَّ: أي أسرع.

يحمل على نفسه العجائب، ويمنعُها اللذات، وتصيرُ لذَّاته في جمع المال، وهذه جِبِلَّة في خلقٍ كثير.

وليس العجبُ أن تكون في الجُهَّال، بل العجب أن تكون في أهل العلم، وينبغي أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبعِ ومخالفته، خصوصاً في الأفعال اللازمة في المال.

فأمَّا أن يكون العالمُ جامعاً للمال من وجوهٍ قبيحة ومن شبهات قوية، وبحرصٍ شديد، وبِذُلٍّ في الطلب، ثم يأخذ من الزكوات ولا تحلُّ له مع الغنى، ثم يدَّخرُه ولا ينفع به، فهذه بهيمية تخرجُ عن صفات الآدمية، بل البهيمية أعذرُ؛ لأنَّها بالرياضة تتغير طباعُها، وهؤلاء ما غَيَّرتْهُم رياضةٌ، ولا أفادهم العلمُ. فالويل لهم ما أقلَّ ما يتمتَّعون بظواهرِ الدنيا، وإن كان مقلبُ القلوب قد صرف القلوبَ عن محبَّتهم؛ لأنَّ الحقَّ عزَّ وجلَّ لا يميل بالقلوب إلَّا إلى المخلصين، فقد فاتتهم الدُّنيا على الحقيقةِ، وهي مسك القلوب والآخرة بالاتفاق، وما حصَّلوا إلَّا صورةَ الحطام، نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ عقلاً يدبِّر دنيانا، ويحصِّل لنا آخرتنا، والرزَّاق قادر.

مرض الهوى عند العلماء

أضرُّ ما على المريض التخليطُ، وما مِنْ أحدٍ إلَّا وهو مريضٌ بالهوى، والحِمْيَةُ عنه رأسُ الدَّواء، والتخليط يديمُ المرض.

وتخليطُ أرباب الآخرة على ضربين:

أحدهما: تخليط العلماء، وهو إمَّا لمخالطةِ الأضداد كالسلاطين، فإنَّهم يُضعِفون قوى يقينهم كلَّما زادت المخالطة، ويقدِّمون دليلهم عند المريدين، فإنِّي إذا رأيتُ طبيباً يخلِط ويحميني شككتُ، أو وقفت.

والثاني: تخليط الزُّهاد، وقد يكون بمخالطةِ أرباب الدنيا، وقد يكون بحفظ الناموس في إظهار التخشُّع، لاجتلاب محبةِ العوام.

فالله الله، فإنَّ ناقد الجزاء بصير، والإخلاصَ في الباطن، والصدقَ في القلب، ونعمَ طريقُ السلامة سترُ الحال.

العلماء وحب الدنيا

رأيت أكثرَ العلماء يتشاغلون بصورة العلم، فَهَمُّ الفقيه التَّدريس، وهَمُّ الواعظ الوعظ، فهذا يراعي درسَه، فيفرح بكثرة مَنْ يسمعه، ويقدح في كلام مَنْ يخالفه، ويُمضي زمانه في التفكُّر في المناقضات، ليقهر مَنْ يجادله، وعينه إلى التصدُّر والارتفاع في المجالس، وربَّما كانت همَّتُهُ جَمْعَ الحُطام، ومخالطة السَّلاطين.

والواعظ همَّته ما يزوِّقُ به كلامه، ويكثرُ جمعه، ويجلب به قلوب الناس إلى تعظيمه، فإن كان له نظير في شغله أخذ يطعن فيه. وهذه قلوب غافلةٌ عن الله عزَّ وجل؛ إذ لو كانت لها به معرفة لاشتغلت به، وكان أنسها بمناجاته، وإيثارها لطاعاته، وإقبالها على الخلوة به، لكنَّها لما خلت من هذا تشاغلت بالدنيا، وذاك دنيا مثلها؛ فإذا خلت بخدمة الله تعالى لم تجدْ لها طعماً، وكان جميع الناس أحبَّ إليها، وزيارةُ الخلق لها آثر عندها، وهذه علامة الخِذْلان.

وعلى ضدِّ هذا متى كان العالِمُ مقبلاً على الله سبحانه، مشغولاً بطاعته؛ كان أصعبُ الأشياء عنده لقاءَ الخلق ومحادثتهم، وأحبُّ الأشياء إليه الخلوةَ، وكان عنده شغل عن القدحِ في النظر، أو عن طلب الرياسة، فإنَّ ما علَّق به همَّته من الآخرة أعلى من ذلك، والنفس لا بدَّ لها ممَّا تَشاغلُ به، فمن اشتغل لخدمة الخلق أعرض عن الحقِّ، فإنَّما يربِّي رياستَه، وذلك يوجبُ الإعراض عن الحقِّ و: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

العلماء والحكَّام

رأيتُ خلقاً من العلماء والقُصَّاص تضيقُ عليهم الدُّنيا، فيفزعون إلى مخالطة السلاطين، لينالوا من أموالهم، وهم يعلمون أنَّ السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها، ولا يخرجونها في حقِّها، فإنَّ أكثرَهم إذا حصل له خَرَاجٌ ينبغي أن يُصرَف إلى المصالح وَهَبَه لشاعر، وربَّما كان معه جندي يصلُح أن تكون مشاهرتُهُ عشرةَ دنانير، فأعطاه عشرةَ آلاف، وربما غزا فأخذ ما ينبغي أن يقسم على الجيش، فاصطفاه لنفسِهِ، هذا غير ما يجري من الظلم في المعاملات.

وأولُ ما يجري على ذاك العالم أنَّه قد حُرِم النفع بعلمه، وقد رأى بعضُ الصَّالحين رجلاً عالماً يخرج من دار يحيى بن خالد البرمكي، فقال: أعوذ بالله من علمٍ لا ينفع، ألم تَرَ المنكرات ولا تنكر، وتتناول من طعامهم الذي لا يكاد يحصُل إلَّا بظلمٍ، فينطمسُ قلبك، وتحرم لذَّة المعاملة للحقِّ سبحانه، ولا يقدر لك أن يهتدي بك أحدٌ، بل ربَّما كان فعل هذا سبباً لإضلال الناس في الاقتداء به، فهو يؤذي نفسه، ويؤذي أميره؛ لأنَّه يقول: لولا أنّني على صواب ما صحبني، ولأنكر عليَّ.

ويؤذي العوامَّ تارةً بأن يروا أنَّ ما فيه الأميرُ صوابٌ، وأنَّ الدخولَ والسكوتَ عن الإنكار جائز، ويحبّب إليهم الدنيا، ولا خيرَ والله في سعة من الدنيا ضيَّقت طريق الآخرة.

وأنا أفدي أقواماً صابروا عطش الدنيا في هجيرِ الشهوات زمان العمر حتى رَوَوا يوم الموت من شرابِ الرِّضا، وبقيت أذكارهم تُروَى، فتروِي صدأَ القلوب، وتجلو صداها.

هذا الإمام أحمدُ يحتاجُ، فيخرج إلى اللُّقاط[١]، ولا يقبل مالَ السُّلطان. وهذا إبراهيم الحربي يتغدَّى بالبقل، ويردُّ على المعتضد ألفَ دينار. وهذا بِشْرٌ الحافي يشكو الجوعَ، فيقال له: نصنع لك حساء من دقيق؟ فيقول: أخافُ أن يقول لي هذا الدقيق: من أين لك؟

بقيت واللهِ أذكارُ القوم، وما كان الصبر إلَّا غفوة نومٍ، ومضت لذاتُ المرخِّصين، وبليت الأبدان، ووهَن الدِّين.

فالصبرَ الصبرَ يا من وفِّق، ولا تغبطنَّ من اتَّسع له أمرُ الدنيا، فإنَّك إذا تأمَّلت تلك السَّعة رأيتها ضيقاً في باب الدِّين، ولا ترخِّصْ لنفسك في تأويل، فعمُرك في الدُّنيا قليل.

وسواء إذا انقضى يوم كسرى ... في سرورٍ ويوم صابر كسرة

ومتى ضجَّت النفسُ لقلة صبر، فاتلُ عليها أخبارَ الزُّهاد، فإنَّها ترعوي وتستحي، وتنكسرَ إن كانت لها همّةٌ، أو فيها يقظة.

---

(١) اللقاط: ما يلقط من السنابل من الأرض.

علماء السوء

قدم علينا بعضُ الفقهاء من بلاد الأعاجم، وكان قاضياً ببلده، فرأيتُ على دابته الذَّهب ومعه أتوارُ(١) الفضة، وأشياءُ كثيرةٌ من المحرَّمات، فقلت: أيُّ شيءٍ أفادَ هذا العلم؟! بل والله قد كثرت عليه الحججُ، وأكبر الأسباب قلةُ علم هؤلاء بسيرة السَّلَفِ، وما كان عليه رسولُ الله ﷺ، إلَّا أنَّهم يجهلون الجُمْلَة، ولكنَّهم يتشاغلون بعلم الخلاف، ويقصدون التقدُّم، ولا يقصدون سماعَ حديث ولا نظراً في سِيَرِ السَّلَف، ويخالطون السلاطين، فيحتاجون إلى التزيِّي بزَيِّهم، فربما خطر لهم أنَّ هذا قريب، وإن لم يخطر لهم فالهوى غالبٌ بلا صادّ، وربَّما خَطَرَ لهم أنَّ هذا يحتملُ، ويغفر في جانبِ تشاغلنا بالعلم.

ثم يرون العلماءَ يكرمونهم لنيل شيءٍ من دنياهم، ولا ينكرون عليهم، ولقد رأيتُ من الذين ينتسبون إلى العلم مَنْ يستصحب المُردان، ويشتري المماليك، وما كان مَنْ يفعل هذا إلَّا مَنْ قد يئس من الآخرة، ورأيت مَنْ قد بلغ الثمانين من العلماء، وهو على هذه الحالةِ.

فاللهَ الله يا مَن يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة، إيَّاك والتأويلات الفاسدة، والأهواء الغالية، فإنَّك إن ترخَّصت بالدخولِ في بعضها جَرَّك الأمرُ إلى الباقي، ولم تقدر على الخروج لموضع إلف الهوى، فاقبلْ نصحي، واقنعْ بالكِسْرة، وابعد عن أرباب الدُّنيا، فإذا ضجَّ الهوى فدعه لهذا، وربما قال لك: فالأمر الفلاني قريبٌ، فلا تفعل، فإنَّه يدعو إلى غيره ويصعُبُ التلاقي، فالصبرَ الصبرَ على شَظَف العيش والبعد عن أرباب الهوى، فما يتمُّ دين إلَّا بذلك، ومتى وقعَ التَّرخيص حمل إلى غيره، كالشاطئ إلى اللُّجَّة، وإنَّما هو طعامٌ دون طعام، ولباسٌ دون لباس، ووجهٌ أصبحُ مِنْ وجه، وإنَّما هي أيامٌ يسيرةٌ.

---

(١) أتوار: جمع تَوْر، وهو إناء يشرب فيه.

معصية العلماء

تأمَّلتُ إقدام العلماءِ بالعقاب على شهوات النفس المنهي عنها، فرأيتها مَرْتبةً تزاحمُ الكفرَ لولا تلوّح معنىً، وهو أنَّ النَّاس عند مواقعةِ المحظور ينقسمون:

فمنهم جاهلٌ بالمحظور أنَّه محظورٌ، فهذا نوع عُذْر.

ومنهم مَنْ يظنّ المحظورَ مكروهاً لا محرماً، فهذا قريبٌ من الأول، وربَّما دخلَ في هذا القسم آدم ﷺ.

ومنهم مَنْ يتأوَّل فيغلط، كما يقال: إنَّ آدمَ عليه الصلاة والسلام نُهي عن شجرةٍ بعينها، فأكلَ من جنسها لا من عينها.

ومنهم مَنْ يعلم التحريمَ، غير أنَّ غلبات الشهوة أنْسَتْهُ تذكرَ ذلك، فشغلَه ما رأى عمَّا يعلم، ولهذا لا يذكرُ السَّارقُ القطعَ، بل يغيبُ بكليته في نيل الحظِّ، ولا يذكر راكبُ الفاحشةِ الفضيحة ولا الحدَّ؛ لأنَّ ما يرى يُذهِله عمَّا يعلم.

ومنهم من يعلمُ الحظرَ ويذكرُه.

غير أنَّ الأخذَ بالحزم أولى بالعاقل، كيف وقد علمَ أنَّ هذا المَلِكَ الحكيمَ قطع اليد في ربع دينار، وهدمَ بناء الجسم المُحكم بالرَّجم بالحجارةِ لالتذاذِ ساعة، وخسفَ، ومسخَ، وأغرق.

عقوبة العلماء

أعظمُ المعاقبة ألَّا يحسَّ المعاقَبُ بالعقوبة، وأشدُّ من ذلك أن يقعَ السرورُ بما هو عقوبة، كالفرح بالمال الحرام، والتمكُّن من الذنوب، وَمَنْ هذه حالُهُ لا يفوز بطاعة.

وإنِّي تدبَّرت أحوال أكثر العلماء والمتزهِّدين، فرأيتُهم في عقوباتٍ لا يحسُّون بها، ومعظمُها مِنْ قِبَل طلبهم للرياسة، فالعالمُ منهم يغضُب إن رُدَّ عليه خطؤُه، والواعظُ متصنِّعٌ بوعظه، والمتزهِّدُ منافق أو مُراءٍ.

فأولُ عقوباتِهم إعراضُهم عن الحقِّ شُغلاً بالخَلْق، ومِنْ خفيِّ عقوباتهم سلبُ حلاوة المناجاةِ ولذةِ التعبد، إلَّا رجالاً مؤمنين، ونساءً مؤمناتٍ، يحفظ الله بهمُ الأرضَ، بواطنُهم كظواهِرِهم، بل أجلى، وسرائرُهم كعلانيتهم، بل أَحلى، وهممُهم عند الثريَّا، بل أعلى، إن عُرِفوا تنكَّروا، وإن رُئيتْ لهم كرامةٌ أنكروا، فالناسُ في غَفَلاتهم، وهم في قطعِ فلاتهم، تحبُّهم بقاعُ الأرض، وتفرح بهم أملاكُ السَّماء، نسأل الله عزَّ وجلَّ التوفيقَ لاتِباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم.

استعداد العالم للموت

الواجبُ على العاقل أخذ العُدَّة لرحيله، فإنَّه لا يعلم متى يَفجؤه أمرُ ربِّه، ولا يدري متى يُستدعى، وإنِّي رأيتُ خلقاً كثيراً غرَّهم الشبابُ، ونسُوا فَقْدَ الأقران، وألهَاهم طولُ الأمل، وربما قالَ العالم المحض لنفسِهِ: أشتغلُ بالعلم اليوم، ثم أعمل به غداً، فيتساهل في الزلل بحجة الراحةِ، ويؤخِّر الأهبة لتحقيق التوبة، ولا يتحاشى من غيبةٍ أو سماعها، ومِن كسبِ شبهةٍ يأمل أن يمحوَها بعمل في غد وينسى أنَّ الموت قد يبغَت، فالعاقلُ من أعطى كلَّ لحظة حقَّها من الواجب عليه، فإن بَغته الموتُ رؤيَ مستعدّاً، وإن نال الأملَ ازداد خيراً.

اعتدال العالم في ذكر الموت

اعلم أنَّ أصلحَ الأمور الاعتدالُ في كلِّ شيء، وإذا رأينا أرباب الدُّنيا قد غلبت آمالُهم، وفَسَدَتْ في الخير أعمالُهم، أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة.

فأمَّا إذا كان العالمُ لا يغيب عن ذكره الموتُ، وأحاديث الآخرة تُقرأ عليه، وتجري على لسانه، فتذكارُه الموتَ زيادةً على ذلك لا تفيد إلَّا انقطاعه بمرَّة. بل ينبغي لهذا العالم الشديدِ الخوف من الله تعالى الكثير الذِّكر للآخرة أن يُشاغل نفسَه عن ذكر الموت ليمتدَّ نفس أمله قليلاً فيصنِّف، ويعمل أعمال خير، ويقدر على طلب ولد. فأمَّا إذا لهج بذكر الموت كانت مفسدتُهُ عليه أكثرَ من مصلحته، ألم تسمع أنَّ النبي ﷺ سابق عائشةَ رضي الله عنها فسبقته، وسابقها فسبقها،

وكان يمزحُ، ويشاغل نفسه، فإنَّ مطالعة الحقائق على التحقيقِ تُفْسِدُ البدنَ، وتُزْعِجُ النفس.

وقد روي عن أحمد بن حنبل رحمةُ الله عليه، أنَّه سأل الله تعالى أن يفتح عليه بابَ الخوف، ففتح عليه، فخافَ على عقله، فسأل الله أن يردَّ ذلك عنه. فتأمَّلْ هذا الأصل، فإنَّه لا بدَّ من مغالطةِ النفس وفي ذلك صلاحُها. والله الموفِّق والسَّلام.

فهرس الموضوعات

تم بحمد الله